المنار

١٣١٥

﴿ فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ﴾

﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾

قال عليه الصلاة والسلام: إن للإسلام صوى و «منارا» كمنار الطريق

مصر ٣٠ ذي القعدة ١٣٣٤ — ١٨ الميزان (برج) ١٢٩٥ هـ ش ٢٨ سبتمبر ١٩١٦

تفسير القرآن الحكيم

(على الطريقة التي [illegible] محمد عبده رضي الله عنه)

(١٢) قُلْ لِمَنْ ما في السَّمٰوٰتِ والأَرْضِ ؛ قُلْ لِلّٰهِ كَتَبَ على نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إلى يَوْمِ القِيٰمَةِ لا رَيْبَ فِيهِ ، الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٣) وَلَهُ ما سَكَنَ في اللَّيْلِ والنَّهارِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ (١٤) قُلْ أَغَيْرَ اللّٰهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فاطِرِ السَّمٰوٰتِ والأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ ، قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ولا تَكُونَنَّ مِنَ المُشْرِكِينَ (١٥) قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٦) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ

يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٧) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٩) قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ، قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ، أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى ، قُلْ لَا أَشْهَدُ ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ

بين تعالى في الآيات السابقة أصول الدين وما يدل عليها، وشبهات الكفار على الرسالة مع ما يدحضها ، ووعده ووعيده وارشاده الى ما مضى من الرسل وأقوامهم لتسليته وتثبيت قلبه ، المعين له على المضي في تبليغ دعوة ربه ، ثم قفى سبحانه على ذلك بتقفيته أسلوبا آخر من إقامة الحجج على قومه ، وهو أسلوب السؤال والجواب ، في موضع فصل الخطاب ، وان كان تكراراً لمعنى سبق أو اشتمل على التكرار ، وحكمة ذلك ان التنويع في الاحتجاج والتفنن في أساليبه من ضروريات الدعوة الى الدين – والى غير الدين من المقاصد البشرية أيضا – لان التزام دليل واحد على المطلوب الذي لابد من تكرار ذكره أو إيراد عدة أدلة بأسلوب واحد قد يفضي الى سآمة الداعي من التكرار على رغبته في الدعوة وتفانيه في نشرها وإثباتها ، فكيف يكون تأثيره في المدعوين الكارهين له ولها، اذا لم يعقلوا الدليل الاول أولم توجه قلوبهم الى تدبر الاسلوب الواحد المشتمل على عدة أدلة ؛ لا جرم أنهم يكونون في منتهى السآمة والضجر من سماع ذلك ، وفي غاية النفور منه ، كيف وقد كان المعاندون منهم ينهون عن هذا القرآن وينأون عنه على ما امتاز به في مقام التفنن والتنويع ، والبلاغة المعجزة في كثرة الاساليب ، قال عز وجل :

(قل لمن ما في السموات والارض) أي قل أيها الرسول لقومك الجاحدين

لرسالتك المعرضين عما جئتهم به من أمر التوحيد والبعث والجزاء: لمن هذه المخلوقات في العالم كله علويه وسفليه ؟ السؤال للتبكيت أو التقرير . وقد بينا في تفسير الآيات السابقة ان العرب كانت تؤمن بأن الله تعالى هو خالق السموات والارض وان كل مافيهما ومن فيهما ملك وعبيد له . ولفظ ما يشمل العقلاء مع غيرهم . وجزم في الكشاف بأن السؤال للتبكيت وان قوله تعالى ﴿ قل لله ﴾ تقرير لهم . أي هو لله لا خلاف بيني وبينكم في ذلك ولاتقدرون أن تضيفوا شيئا منه الى غيره . وقال غيره: تقرير الجواب نيابة عنهم أو إلجاء لهم الى الاقرار . وقال الرازي أمره بالسؤال أولا ثم بالجواب ثانيا . وهذا إنما يحسن في الموضع الذي يكون الجواب فيه قد بلغ في الظهور الى حيث لايقدر على إنكاره منكر ، ولا يقدر على دفعه دافع . ثم بين ان هذا من هذا ، واحتج على أن كل ذلك لله بما في العالم المادي من آثار الحدوث والامكان ، على طريقة المتكلمين في الاستدلال

ونقول ان إتيان السؤال بالجواب يحسن في غير الموضع الذي حصر الرازي الحسن فيه ، وهو أن يكون الجواب به مما يعتقده المسؤول والمجيب به ان أجاب ، وانما يسبقه اليه ليبني عليه شيئا آخر من لوازمه هو مما يجهله المسؤول أو يغفل عنه أو ينكره لجهله أو غفلته عن كونه لازما لما يعرفه ويعتقده . وليس المسؤول عنه هنا مما لايقدر على انكاره منكر ولا على دفعه دافع ، فقد أنكره أهل الالحاد والتعطيل ، فالظاهر ان يقال ان الله تعالى أمره بالجواب وان يبدأهم بما كانوا يجيبون به كما علم من آيات أخرى[1] ليبني عليه قوله ﴿ كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم الى يوم القيامة لاريب فيه ﴾ والمعنى ان الله تعالى الذي تقرون معي بأن له ما في السموات وما في الارض قد أوجب على ذاته العلية الرحمة بخلقه كما يعلم ذلك من إفاضة نعمه عليهم ظاهرة وباطنة . ومن مقتضى هذه الرحمة ان يجمعكم الى يوم القيامة حال كونه لاريب فيه — أو جمعا لاريب فيه — أي ليس من شأنه ان يرتاب فيه من تدبر دلائل رحمة الله وحكمه ، فان هذا الجمع لاجل الحساب والجزاء فهو رحمة بالمكلفين يأتي الفوضى والاهمال واستباحة الظلم ، والعلم به رحمة أيضا . لانه وازع نفسي لا يتم

(١) راجع تفسير الآية الثالثة من هذه السورة

تهذيب النفس بدونه، بل الرحمة أعم من ذلك. فمن رحمته تعالى بالناس ما منحهم من هدايات الحواس والوجدان والعقل وهداية الدين القويم لما يجنونه على تلك الهدايات باستعمالها فيما يضرهم ولا ينفعهم، والمساعدة لهم على تكميل فطرتهم وتزكية أنفسهم

بيان ذلك أن من أصول دينه القويم — الذي هو مظهر رحمته العليا الموافق لفطرته التي فطر الناس عليها — أن للأعمال البشر جزاء فطريا هو أثر لازم العمل بحسب سنته تعالى في تأثير الاعمال النفسية والبدنية في اصلاح الانفس أو إفسادها، وجزاء آخر شرعيا تابعا له هو إنشاء فضل أو عدل منه عز وجل، فالاول — وهو الاصل — ما يترتب على تزكية النفس بالعقائد الصحيحة والعلوم الثابتة والاخلاق الكريمة التي تطبعها فيها عبادة الله تعالى وحسن المعاملة مع خلقه من هناء المعيشة في الدنيا بالجمع بين اللذة الحياة العقلية والروحية واللذة الحياة الجسدية المعتدلة وهو أدنى المرادين وأقلهما وغير المطرد منهما — وما يترتب على ذلك من النعيم المقيم في الآخرة — وهو الكامل المطرد — وما يترتب على خبث النفس وإفسادها بالعقائد الباطلة كخرافات الوثنية وأوهامها وبفساد الأخلاق والملكات الرديئة التي تطبعها فيها تلك الاوهام السخيفة والاعمال القبيحة والعادات الوثنية من شقاء المعيشة في الدنيا وعذاب الآخرة، وكل منهما من لوازم تلك العقائد والاخلاق والاعمال، فهي كالاعمال الضارة والوساوس العصبية (الهستيرية) التي تترتب عليها الأمراض المعضلة والادواء القاتلة ، كما ان ما تقدم من مقابلها يشبه الاعمال البدنية والنفسية التي يرتاض بها البدن والعقل حتى يبلغ بهما المرء من الصحة والاعتدال، ما هو مقدر له من الكمال، فعلى هذا تكون هداية الدين العقائد الصحيحة والفضائل والآداب والعبادات وزجره عن الوثنية والخرافات والرذائل والشرور — كل ذلك كبث الوصايا الصحية والعلوم الطبية في الناس، ليكون لهم وازع من أنفسهم يتقون به ما يضرهم ويقبلون على ما ينفعهم — وتلك رحمة عظيمة بهم ، ولا ينافي كون ذلك من الرحمة ما يترتب على الباطل والشر من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة، لانه جناية منهم على أنفسهم ، فمثلهم فيه كمثل المريض يخالف أوامر الطبيب وتواهيه الخاصة ويخالف الوصايا الصحية العامة فيزداد أمراضا وأسقاما ، ولا ينافي ذلك كون تلك الوصايا رحمة بالناس ونعمة عليهم

وأما الجزاء الثاني الذي هو انشاء من مقتضى الفضل أو العدل فهو مترتب على الجزاء الاول وتابع له وهو قسمان (أحدهما) ما يزيد الله المحسنين من الكرامة والنعيم بفضله ، على ما استحقوه بإيمانهم وأعمالهم الصالحة بحسب وعده ، ولما كانت الرحمة أعم وأوسع وأعظم كان هذا النوع من الجزاء خاصا بالمحسنين من عباده ، فهو رحمة خاصة نسأله تعالى ان يجعلنا من خيار أهلها . (وثانيهما) القصاص في الحقوق وان قلت وما يقتص به تعالى في الآخرة للمظلومين من الظالمين بحسب عدله . ولما كان مقتضى الرحمة والفضل ، أعم وأسبق من مقتضى العدل ، كان جزاء الظالمين المسيئين على قدر استحقاقهم ، ومنهم من يعفو الله عنهم . فالجزاء على الاساءة قد ينقص منه بالعفو والمغفرة ولكن لا يزاد فيه شيء قط . وأما الزيادة في الجزاء على الاحسان : (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ، للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ، وأما الذين استنكفوا واستكبروا [illegible] من الجزاء رحمة أيضا فهو كيان [illegible] الضارة ، وما ينال المحسنين من الامن والعز والترقي في خدمة الدولة . روى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة ان النبي (ص) قال « ان الله لما خلق الخلق كتب كتابا عنده فوق العرش : ان رحمتي تغلب غضبي » وفي رواية « ان رحمتي سبقت غضبي » وانما السبق والغلب في أثري الرحمة والغضب وتعلقهما لا في الصفات أنفسها ، وسنزيد هذا البحث بيانا في تفسير (ورحمتي وسعت كل شيء) من سورة الاعراف ان أحيانا الله تعالى

أما تعلق جمع الناس الى يوم القيامة بكتابة الرحمة من جهة نظم الكلام واعرابه فقيل ان كتابة الرحمة تأكيد لها في معنى القسم وجملة « ليجمعنكم » جواب القسم محذوف حل محله ما في معناه . وقيل ان الجملة استئناف بياني . كأنه قيل وما مقتضى هذه الرحمة ؟ وما موقعها من موضوع دعوة الرسالة ؟ فقيل انه تعالى أقسم ليجمعنكم ، اذ لو لم يجمعكم للحساب والجزاء لظل كثير من المحسنين منكم مغبونين محرومين ، وكثير من المظلومين مهضومين ، وكثير من الظالمين المسيئين غير مؤاخذين . ذلك بأن ما يترتب على الاعمال الحسنة في الدنيا من حسن الاثر وعلى الاعمال السيئة من

قبح الاثر ليس عاما مطردا في جميع الافراد كما تقدم آنفا وهو يعلم من الاختبار ومن سنن الله الاجتماعية والكونية ، وذلك ينافي الرحمة ، كما ينافي العدل والحكمة ، فمن مقتضى كتابته سبحانه الرحمة على نفسه ان يجمع الناس للفصل بينهم وجزاء كل منهم بما يقتضيه العدل في الكل والفضل في البعض . والجمع بمعنى الحشر ويتعديان بالى ، يقال : جمعهم اليه وحشرهم اليه . وجمع الناس الى يوم القيامة معناه حشرهم الى موقفه أو حسابه ، أو معناه ليجمعنكم منتهين الى ذلك اليوم . وقيل ان « الى » صلة وقيل أنها بمعنى في ، وكلاهما ضعيف

وأما قوله تعالى (الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون) فمعناه أخص هؤلاء ممن يجمعون الى يوم القيامة بالذكر أو التذكير أو بالذم والتوبيخ فانهم لخسران أنفسهم في الدنيا لا يؤمنون بالآخرة . ولا شك في أن هؤلاء أولى بأن يخصوا بالتذكير أو بالذم المفضي الى التفكير ، وقيل ان المعنى ليجمعنكم الى يوم القيامة أيها الذين خسروا أنفسهم ... أحق من الكل بهذه الاجدر بالخطاب الاحوج اليه – أو وصف لاولئك المخاطبين بها الوصف الدال على أنه هو مناط الانذار والوعيد . وقيل ان الجملة مستقلة معناها ان الذين خسروا أنفسهم لا يؤمنون بهذا الجمع ولا يتقون مخبره . والاول أقوى وأظهر : وخسارة الانفس عبارة عن افساد فطرتها وعدم اهتدائها بما منحها الله تعالى من الهدايات التي أشرنا اليه آنفا .

فالمقلدون قد خسروا أنفسهم لانهم حرموا أنفسهم من استعمال أشرف النعم الغريزية وهو العقل ، وحرموا على أنفسهم أفضل الفضائل الكسبية وهو العلم والفهم ، واذا كان بعض الائمة قد صرح بأن المجتهد المخطئ أفضل من المقلد للمجتهد المصيب فكيف يكون حال المقلد في الشرك والكفر والعياذ بالله تعالى .

والحرمان من مضاء العزيمة وقوة الارادة خسران للنفس يضاهي خسرانها بفقد العلم الاستدلالي ، فان ضعيف الارادة ان أوتي حظا من العلم لا يقوم بحقه ولا يعمل به كما يجب ، لأن ما يهدي اليه العلم الصحيح من وجوب نصر الحق وخذل الباطل ومجاهدة الاهواء الردية وعمل الخير والتعاون على البر – كل ذلك لا يخلو من مشقة لا يحملها الا ذو العزيمة الصادقة ، والارادة الثابتة

فمن خسر نفسه بالتقليد لا ينظر ولا يستدل حتى يهتدي الى الايمان ، ومن خسر نفسه بوهن الارادة فلا ينظر ويستدل أيضا ، فان هو نظر وظهر له الحق بما قام من البرهان عليه قعد به ضعف الارادة عن احتمال لوم اللائمين ، واحتقار الاهل والعاشرين ، لمن ترك دين آبائه وأجداده ، وصبا الى حزب أعدائهم وأعدائه . هذا ما يقال في مثل حال المشركين في عهد نزول هذه السورة . وان ضعف الارادة ليصد صاحبه في كل زمان ومكان من الواجبات وسائر الاعمال التي لا بد فيها من احتمال مشقة بدنية أو نفسية وان كانت من أعمال الايمان ومصالح الامة والوطن ، ولو بحثت عن خسران الافراد المتعلمين الذين يعرفون الحقوق والواجبات لكرامة أنفسهم ، وخسران الجماعات والامم التي تولى زعامتها أمثال هؤلاء الافراد لاستقلالها وصلاح أمرها — لرأيت سبب هذا وذاك وهن العزيمة وذبذبة الارادة . فالفوز والفلاح في الدين والدنيا لا يتم الا بالعلم الصحيح والعزيمة الحافزة الى العمل بالعلم ، فمن خسر احدى القضيتين صدق عليه انه خسر نفسه سواء كان فردا أو أمة ، فما بال من خسرهما كليهما والعياذ بالله تعالى .

وقد لمح الزمخشري المعتزلي [illegible] في الآية فأورد على الآية إشكالا وأجاب عنه على طريقة المتكلمين جوابا في غير محله . قال : (فان قلت) كيف جعل عدم إيمانهم مسببا عن خسرانهم والامر على العكس ؟ (قلت) معناه الذين خسروا أنفسهم في علم الله لاختيارهم الكفر فهم لا يؤمنون .

﴿ وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم ﴾ الظاهر المختار ان هذا عطف على ما قبله ، أي لله ما في السموات وما في الارض ، وله ما سكن في الليل والنهار ، واستظهر أبو حيان انه استئناف اخبار غير مندرج تحت السؤال والجواب ، وسكن من السكنى ، أو من السكون ضد الحركة ، وفيه اكتفاء بما ذكر عما يقابله أي له ما سكن وما تحرك ، على حد قوله « سرابيل تقيكم الحر » أي والبرد . ويجوز الجمع بين المعنيين على مذهب من يجوز ذلك في المشترك بما يحتمله المقام ، والحكمة في ذكر هذا الملك الخاص على دخوله في عموم ما في السموات والارض التذكير بتصرفه تعالى بهذه الخفايا فان السكنى والسكون من دواعي خفاء الساكن ، فاذا كان

في الليل كان أشد خفاء ، لذلك قدم ذكر الليل ، لان ما يسكن فيه هو المقصود بالذات وعطف النهار عليه تكميل ، ولما ذكر تعالى بأنه المالك ذكر التصرف فيه بقدرته بما يشاء كما هو شأن الربوبية الكاملة ذكرنا بأنه هو السميع العليم أي المحيط سمعه بكل ما من شأنه أن يسمع مهما يكن خفيا عن غيره ، فهو يسمع «دبيب النملة في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء » « وكل سميع غيره يصم عن لطيف الاصوات ويصمه كبيرها ويذهب عنه ما بعد منها » كما قال أمير المؤمنين علي المرتضى كرم الله وجهه . وهو المحيط علمه بكل شيء (يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور) واذا كان كذلك فلا يمكن أن تدق عن سمعه دعوة داع ، أو تعزب عن علمه حاجة محتاج ، حتى يخبره بها الاولياء ، أو يعلمه بها الشفعاء ، (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء)

بعد كتابة ما تقدم راجعت التفسير الكبير فاذا فيه من نكت البلاغة في الآية ما نقله الرازي عن [illegible] في نظمها وهو : ذكر في الآية الأولى السموات والارض اذ لا [illegible] سواهما وفي هذه الآية ذكر الليل والنهار اذ لا زمان سواهما ، فالزمان والمكان ظرفان للمحدثات . فأخبر سبحانه انه مالك للمكان والمكانيات ، والزمان والزمانيات . (قال الرازي) وهذا بيان في غاية الجلالة . وأقول ههنا دقيقة أخرى وهو ان الابتداء وقع بذكر المكان والمكانيات ، ثم ذكر عقبه الزمان والزمانيات ، وذلك لان المكان والمكانيات أقرب الى العقول والافكار من الزمان والزمانيات ، لدقائق مذكورة في العقليات الصرفة . والتعليم الكامل هو الذي يبدأ فيه بالأظهر فالاظهر مترقيا الى الاخفى فالاخفى اه

بعد هذا القول الذي أمر الله به رسوله للتذكير بأنه الرب المالك لكل شيء المتصرف بالفعل والتدبير في كل شيء حتى دقائق الاشياء والامور وخفاياها ، وان تصرفه هذا عن علم محيط لا يعزب عنه مثقال ذرة ولا دبيب نملة ، أمره بقول آخر بين فيه ما يستلزمه ما قبله من وجوب ولايته تعالى وحده والتوجه اليه دون سواه في كل ما هو فوق كسب البشر ، والاعتماد على توفيقه فيما هو من كسبهم ، ولا يتم به المراد بمحض سعيهم ، فقال

(قل أغير الله أتخذ وليا) الولي الناصر ومتولي الامر المتصرف فيه، والاستفهام هنا لانكار اتخاذ غير الله وليا لا لانكار اتخاذ الولي مطلقا ولهذا لم يقل : أأتخذ وليا غير الله ، ولا : أأتخذ غير الله وكيلا . ومثله (أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون) وانما يتحقق اتخاذ غير الله وليا في صورة واحدة وهو ان يطلب من غيره النصر أو غير النصر من ضروب التصرف في النفع والضر فعلا ومنعا فيما هو فوق كسب ذلك الغير وتصرفه الذي منحه الله لأبناء جنسه، ولذلك فسر الولي بالمعبود في هذا المقام ، وأما تناصر المخلوقين وتولي بعضهم لبعض فيما هو من كسبهم العادي فلا يدخل في عموم اتخاذ غير الله وليا أو اتخاذهم أولياء من دون الله . فقد أثنى الله تعالى على المؤمنين بأن بعضهم أولياء بعض . وبين أيضا ان الكفار بعضهم أولياء بعض . وقد تقدم بيان هذا من قبل ، وقد كان المشركون من الوثنيين ومن طرأ عليهم الشرك من أهل الكتاب يتخذون معبوداتهم وأنبياءهم وصلحاءهم أولياء من دون الله تعالى بمعنى أنهم بندائهم ودعائهم والتوجه اليهم والاستغاثة بهم يشفعون لهم عند الله تعالى [illegible] من مرض وسعة في رزق وغير ذلك ، [illegible] لله باعتقاد كون حصول المطلوب من غير أسبابه العادية التي مضت بها السنن الالهية العامة قد كان بمجموع ارادة هؤلاء الاولياء وارادة الله تعالى ، فمقتضى هذا الاعتقاد ان ارادة الله تعالى ما تعلقت بفعل ذلك المطلب الا بالتبع لارادة الولي الشافع أو المتخذ وليا شفيعا، والحق ان ارادة الله تعالى أزلية لا يمكن أن تؤثر فيها الحادثات ، كما تقدم تحريره مرارا بشواهد الآيات القرآنية . ثم وصف الله تعالى بما ينافي اتخاذ غيره وليا فقال

(فاطر السموات والارض) مبدعهما أي مبدئهما على غير مثال سابق ، وروي عن ابن عباس انه قال ما عرفت ما فاطر السموات والارض حتى أتاني اعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما : انا فطرتها، أي ابتدأتها . وأصل الفطر الشق ، ومنه (اذا السماء انفطرت) بمعنى (اذا السماء انشقت) وقيل الكمأة فطر لانها تفطر الارض فتخرج منها . وايجاد البئر انما يبدأ بشق الارض بالمعفر . وقد كانت المادة التي خلق الله منها السموات والارض كتلة واحدة دخانية ، ففتق رتقها وفصل منها

أجرام السموات والارض ، وذلك ضرب من الفطر والشق (أولم ير الذين كفروا ان السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما) — الرؤية هنا علمية —

وصف الله تعالى بفاطر السموات والارض — وهو لانزاع فيه — يؤيد انكار اتخاذ غيره وليا يستنصر ويستعان به أو يتخذ واسطة للتأثير في الارادة الالهية ، فان من فطر السموات والارض بمحض إرادته من غير تأثير مؤثر ولا شفاعة شافع يجب أن يتوجه اليه وحده بالدعاء ، وإياه يستعان في كل ماوراء الاسباب ، وأكد هذا بقوله (وهو يطعم ولا يطعم) أي يرزق الناس الطعام ولا يحتاج الى من يرزقه ويطعمه لانه منزه عن الحاجة الى الطعام وغيره غني بنفسه عن كل ماسواه . وقرأ أبو عمرو « ولا يَطعم » بفتح الياء ، أي لا يأكل . وهذه الجملة الحالية مؤيدة لانكار اتخاذ ولي غير الله وفيها تعريض بمن اتخذوا أولياء من دونه من البشر بأنهم محتاجون الى الطعام لا حياة لهم ولا بقاء الى الاجل المحدود بدونه ، وان الله تعالى هو الذي خلق لهم الطعام فهم عاجزون عن البقاء بدونه ، وعاجزون عن خلقه وإيجاده فكيف يتخذون أولياء مع الغني الحميد الذي قد ... كما قال في الاحتجاج على النصارى في عبادة المسيح وأمه عليهما السلام (ما المسيح بن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صدّيقة كانا يأكلان الطعام) وأما الاولياء المتخذة من غير البشر كالاصنام ، فهي أضعف وأعجز من البشر ، لاتفاق عقلاء الامم كلها على تفضيل الحيوان على الجماد ، وتفضيل الانسان على جميع أنواع الحيوان

(قل اني أمرت أن أكون أول من أسلم) أي قل أيها الرسول بعد ايراد هذه الآيات والحجج على وجوب عبادة الله وحده وعدم اتخاذ غيره وليا : اني أمرت من لدن ربي الموصوف بما ذكر من الصفات أن أكون أول من أسلم اليه وانقاد لدينه من هذه الامة التي بعثت فيها ، فلست أدعو الى شيء لا آخذ به ، بل أنا أول مؤمن وعامل بهذا الدين (ولا تكونن من المشركين) أي وقيل لي بعد هذا الامر بالسبق الى اسلام الوجه له لا تكونن من المشركين الذين اتخذوا من دونه أولياء يزعمون أنهم يقربونهم اليه زلفى ، فأنا أتبرأ من دينكم ومنكم . وحاصل

المعنى أني أمرت بالاسلام ونهيت عن الشرك. كذا قيل، والاولى أن يقال إن حاصله الجمع بين الاسلام والبراءة من الشرك وأهله

وبعد هذا القول المبين لاصل الدعوة وأساس الدين وكون الداعي اليه مأمورا به كغيره — أمر الله رسوله بقول آخر في بيان جزاء من خالف ماذكر من الامر والنهي آنفا وأنه عام لا هوادة فيه ولا شفاعة تحول دونه فقال ﴿ قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ قدم ذكر الخوف على شرطه الذي شأنه أن يتقدمه لانه هو الاهم المقصود بالذكر، وشرط «إن» لا يقتضي الوقوع، فالمعنى إن فرض وقوع العصيان مني لربي فاني أخاف أن يصيبني عذاب يوم عظيم، وهو يوم القيامة، وصف بالعظم لعظمة ما يكون فيه من تجلي الرب سبحانه ومحاسبته للناس ومجازاته لهم، وحكمة هذا التعبير ما أشرنا اليه من أن هذا الدين دين الله الحق لا محاباة فيه لاحد مهما يكن قدره عظيما في نفسه، وأن يوم الجزاء لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة — [illegible] المشركين — ولا سلطان لغير الله تعالى فيتكل عليه من يعصيه ظنا أنه يخلصه منه أو ينجيه ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والامر يومئذ لله ﴾ وإذا كان خوف النبي (ص) من العذاب على المعصية منتفيا لانتفائها بالعصمة فخوف الاجلال والتعظيم ثابت له دائما

﴿ من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين ﴾ أي من يُصرف ويحول عن ذلك العذاب في ذلك اليوم العظيم حتى يكون بمعزل عنه، أو من يصرف عنه ذلك العذاب في ذلك اليوم — فقد رحمه الله بانجائه من الهول الاكبر، وما وراء النجاة من دخول الجنة، لان من لا يعذب يومئذ يكون منعما حتما. وذلك الجمع بين النجاة من العذاب والتمتع بالنعيم في دار البقاء هو الفوز المبين الظاهر. وقد حققنا في تفسير آخر السورة السابقة (المائدة) أن الفوز انما يكون بمجموع الامرين السلبي والايجابي، ولا ينافي ذلك ما قيل في أهل الاعراف على ما يأتي تحقيقه في سورتها. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم (مَن يَصرِف عنه) بالبناء للفاعل، أي من يصرفه الله عنه أي عن العذاب الخ ويؤيدها قراءة

أي (من يصرف الله) باظهار الفاعل وحذف المفعول ، ولعله قال ذلك بقصد التفسير، ولا يمنعنا من الجزم بذلك الا أن يصح أنه كتب اسم الجلالة في مصحفه

وقد استدلت الاشعرية بالآية على أن الطاعة لا توجب الثواب والمعصية لا توجب العقاب لانها ناطقة بأن ذلك من رحمة الله تعالى وفعل الواجب لا يسمى رحمة ، وضربوا لذلك الامثال في أفعال البشر . والحق أن من أفعال الرحمة البشرية ماهو واجب ومن الواجب على الناس ماهو رحمة أي واجب لانه رحمة، وأما الخالق عز وجل فلا يوجب عليه أحد شيئا اذ لا سلطان فوق سلطانه ، وله أن يوجب على نفسه ما شاء ، وقد كتب على نفسه الرحمة أي أوجبها كما نص عليه كتابه في هذا السياق . فهذه كتابة مطلقة ، وسيأتي في سورة الاعراف كتابتها للمتقين المزكين من مؤمني هذه الامة . ولو لم يكتب الرب على نفسه الرحمة لجاز أن لا يرحم أحدا وأن لا يكون رحيما بخلقه ، ولذلك أجاز بعض المتكلمين هذا فكتاب الله لا يجيزه . ولما بين سبحانه أن صرف العذاب والفوز بالنعيم بعده من رحمته في الآخرة بين أن الامر كذلك في الدنيا وان التصرف فيه لله الولي الحميد وحده فقال

﴿ وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو ، وان يردك بخير فهو على كل شيء قدير ﴾ المس أعم من اللمس في الاستعمال . يقال مسه السوء والكبر والعذاب والتعب والضراء والضر والخير . أي أصابه ذلك ونزل به ، ويقال مسه بذلك أي أصابه به . وقد وردت هذه المعاني كلها في القرآن، ولكن المس بالخير ذكر هنا في مقابل المس بالضر مسندا الى الله تعالى ، وفي سورة المعارج في مقابل المس بالشر غير مسند الى الله تعالى ، والضر بالضم والفتح — لغتان أو الضر بالفتح مصدر و بالضم اسم مصدر ، والاستعمال فيه أن يضم اذا ذكر وحده ويفتح اذا ذكر مع النفع . وهو ما يسوء الانسان في نفسه أو بدنه أو عرضه أو ماله أو غير ذلك من شؤونه . ويقابله النفع . وقال الرازي : الضر اسم للالم والحزن والخوف وما يفضي اليها أو الى أحدها ، والنفع اسم للذة والسرور وما يفضي اليهما أو الى أحدهما ،

والخير اسم للقدر المشترك من دفع الضر وحصول الخير. وقال الراغب الخير ما يرغب فيه الكل كالعقل مثلا والعدل والفضل والشيء النافع وضده الشر. وأقول إن الخير ما كان فيه منفعة أو مصلحة حاضرة أو مستقبلة، فمن الضار المكروه الذي يسوء ما يكون خيرا بحسن أثره أو عاقبته، والشر ما لا مصلحة ولا منفعة فيه البتة أو ما كان ما ضره أكبر من نفعه. قال تعالى (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم — وقال في النساء — فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا — وقال — إن الذين جاؤا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم) والشر لا يسند إلى الله تعالى ولكنه مما يبتلي به الناس ويختبرهم. وقوله تعالى (ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم) ليس من هذا الاسناد في شيء. وفي الحديث «الخير كله بيديك والشر ليس إليك»

ومن دقائق بلاغة القرآن [illegible] العبارات وأجمعها لمحاسن الكلام مع مخالفة [illegible] التعبير كالمقابلة هنا بين الضر والخير، وإنما مقابل الضر النفع ومقابل الخير الشر، فحكمة المقابلة أن الضر من الله تعالى ليس شرا في الحقيقة بل هو تربية واختبار للعبد يستفيد به من هو أهل للاستفادة أخلاقا وآدابا وعلما وخبرة. وقد بدأ بذكر الضر لأن كشفه مقدم على نيل مقابله، كما أن صرف العذاب في الآخرة مقدم على النعيم فيها، وهذه الآية مقابلة لما قبلها كما تقدم، ثم ذكر الخير في مقابل الضر دون النفع فأفاد أن ما ينفع الناس من النعم إنما يحسن إذا كان ذلك النفع خيرا لهم بعدم ترتب شيء من الشر عليه فكأنه قال: إن أصابك أيها الإنسان ضر كمرض وتعب وحاجة وحزن وقد اقتضته سنة الله تعالى فلا كاشف له أي لا مزيل له ولا صارف يصرفه عنك إلا هو دون الأولياء الذين يتخذون من دونه ويتوجه إليهم المشرك لكشفه، فهو إما أن يكشفه عنك بتوفيقك للأسباب الكسبية التي تزيله، وإما أن يكشفه بغير عمل منك ولا كسب، ولطفه الخفي لا حد له فله الحمد، وإن يمسسك بخير كصحة وغنى وقوة وجاه فهو قادر على حفظه عليك كما أنه قادر على إعطائك إياه لأنه على كل شيء قدير، وأما أولئك الأولياء الذين اتخذوا

من دونه فلا يقدرون على مسك بخير ولا ضر . فالآية كما قال الرازي دليل آخر على انه لايجوز للعاقل أن يتخذ غير الله وليا . وقد تبين بها و بما قبلها أن كل ما يحتاج اليه المرء في الدنيا والآخرة من كشف ضر وصرف عذاب أو ايجاد خير ومنح ثواب فانما يطلب من الله تعالى وحده . والطلب من الله تعالى نوعان : طلب بالعمل ومراعاة الاسباب، التي تقتضيها سنته تعالى في خلقه، وطلب بالتوجه والدعاء اللذين ندبت اليهما آياته تعالى في كتابه وأحكامه الشرعية .

هذا ما فتح الله به و بعد كتابته راجعنا كتاب روح المعاني فوجدنا فيه نقلا في نكتة البلاغة في المقابلة بين الضر والخير أحببنا نقلها إتماما للفائدة قال :

« وفسروا الضر (بالضم) بسوء الحال في الجسم (وبالفتح) بضد النفع[1] وعدل عن الشر المقابل للخير الى الضر على ما في البحر لان الشر أعم ، فأتى بلفظ الاخص مع الخير الذي هو عام رعاية لجهة الرحمة . وقال ابن عطية ان مقابلة الخير بالضر مع أن [illegible] من الفصاحة العدول عن قانون الصنعة وطرح رداء التكلف [illegible] أوفق بالمعنى وألصق بالمقام كقوله تعالى (ان لك ان لا تجوع فيها ولا تعرى، وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى) جيء بالجوع مع العري وبالظمإ مع الضحو وكان الظاهر خلافه، ومنه قول امرىء القيس

كأني لم أركب جوادا للذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

ولم أسبأ الزق الروي ولم أقل لخيلي كري كرة بعد اجفال

وإيضاحه أنه في الآية قرن الجوع الذي هو خلو الباطن بالعري الذي هو خلو الظاهر، والظمأ الذي فيه حرارة الباطن بالضحى الذي فيه حرارة الظاهر، وكذلك قرن امرؤ القيس علوه على الجواد بعلوه على الكاعب لانهما لذتان في الاستعلاء، وبذل المال في شراء الراح، ببذل الانفس في الكفاح، لان في الاول سرور الطرب وفي الثاني سرور الظفر، وكذا هنا أوثر الضر لمناسبته ما قبله من الترهيب، فان الانتقام العظيم عظيم، ثم لما ذكر الاحسان أتى بما يعم أنواعه، والآية من قبيل اللف والنشر فان مس الضر ناظر الى قوله تعالى (اني أخاف) الخ ومس الخير ناظر الى قوله

(١) هذا تحكم لايصح نقلا والتحقيق ماتقدم

سبحانه (من يصرف عنه) » الخ

﴿ وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴾ فسر أهل اللغة القهر بالغلبة والاخذ من فوق وبالاذلال . وقال الراغب القهر الغلبة والتذليل معا ويستعمل في كل واحد منهما . وقد جاءت هذه الآية بعد إثبات كمال القدرة لله تعالى فيما قبلها تثبت له جل وعلا كمال السلطان والتسخير لجميع عباده والاستعلاء عليهم مع كمال الحكمة والعلم المحيط بخفايا الامور ، ارشدتنا الى ان من اتخذ منهم وليا من دونه ، فقد ضل ضلالا بعيدا لاشراكه ومقارنته بين الرب القاهر العلي الكبير الحكيم الخبير ، وبين العبد المربوب المقهور المذلل المسخر الذي لا حول له ولا قوة الا بالله العلي العظيم . فاذا كان هكذا شأن الرب وهذه صفاته فلا ينبغي للمؤمن به ان يتخذ وليا من عباده المقهورين تحت سلطان عزته المذللين لسنته التي اقتضتها حكمته وعلمه بتدبير الامر في خلقه ، لأن أفضل المخلوقات كلهم متساوون في معنى العبودية لله والذل له ، وكونهم لا حول لهم ولا قوة [illegible] من خصائص أحد منهم ان يشاركه في التصرف في خلقه بل [illegible] وحده لكشف ضر ولا جلب نفع (فلا تدعوا مع الله أحدا « بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون اليه ان شاء » قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا) الخ

وقد فسر ابن جرير الآية بقوله : والله الغالب عباده المذللهم العالي عليهم بتذليله لهم وخلقه إياهم فهو فوقهم بقهره إياهم وهم دونه ، وهو الحكيم في علوه على عباده وقهره إياهم بقدرته وسائر تدبيره ، الخبير بمصالح الاشياء ومضارها ، الذي لا تخفى عليه عواقب الامور وبواديها ، ولا يقع في تدبيره خلل ، ولا يدخل حكمه دخل . اه

وذهبت المعتزلة والاشاعرة الى ان قوله تعالى « فوق عباده » تصوير لقهره وعلوه بالغلبة والقهر ، صرح بذلك الزمخشري وتبعه بعض الاشاعرة (كالبيضاوي) بنقل عبارته بنصها ، وبعضهم (كالرازي) بمعناها وإطالة الدلائل النظرية باثبات مضمونها ، ومنع ارادة فوقية الذات واطلاق صفة العلو على الله ، اذ جعل ذلك قولا بتحيز الباري في جهة معينة وأطال في سرد الدلائل النظرية على استحالة ذلك .

ولفظ الآية لا يأبى ما فسره به الزمخشري وأمثاله ، لان له نظيراً ذكروه في تفسيرها وهو قوله تعالى حكاية عن فرعون (وإنَّا فوقهم قاهرون) ويريحي انه يعني فوقية المكانة المعنوية لا المكان . ولو اكتفوا بهذا لكان حسنا لأنه في معنى ما نقل عن مفسري السلف كابن جرير ولكن منهم من شنع على السلف الصالحين وسماهم حشوية لعدم تأويلهم الآيات والاحاديث الصحيحة الناطقة بإثبات صفة العلو المطلق لله تعالى ، فسلف الامة يمرون هذه الآيات بغير تأويل ، ويقولون ان الله مستو على عرشه فوق السموات وفوق العالم كله ، وانه بائن من خلقه ، وانه مع ذلك ليس كمثله شيء ، فليس بمحدود ولا محصور ولا متحيز فهذه اللوازم التي يبني عليها الجهمية وتلاميذهم تأويل صفة العلو مبنية كلها على قياس الخالق على المخلوق والقديم على المحدث ؛ ومن المعلوم أن جميع ما أطلق على الله تعالى من الصفات حتى العلم والقدرة والارادة فانما وضع في أصل اللغة لصفات البشر وهي منافية لصفات الله تعالى ، فلماذا يخصون بعضها بالتأويل دون بعض مع اتفاق سلف الامة ان الله تعالى يوصف بكل وصف وصف به نفسه أو وصفه به رسوله (ص) وان جميع تلك الصفات تطلق عليه مع تنزيهه عن مشابهة من تطلق عليهم أمثالها من الخلق ، فعلم الله وقدرته وكلامه وعلوه وسائر صفاته شؤون تليق به لا تشبه علم المخلوقين وقدرتهم وكلامهم وعلو بعضهم على بعض . وقد انتهى سخف بعض المتكلمين في التأويل الى جعل صفات الباري تعالى سلبية ، وقد تقدم شيء من هذا البحث وسنعود اليه ان شاء الله تعالى

ثم ختم الله تعالى هذه الاقوال أو الاوامر القولية المبينة لحقيقة الدين ودلائله بشهادته لرسوله وشهادة رسوله له فقال

(قل أي شيء أكبر شهادة ؟ قل الله شهيد بيني وبينكم) أخرج ابن اسحق وابن جرير من طريق سعيد أو عكرمة عن ابن عباس قال : جاء النحام بن زيد وقردم بن كعب وبحري بن عمرو [من اليهود] فقالوا : يا محمد ما تعلم مع الله إلها غيره ، فقال « لا إله إلا الله ، بذلك بعثت والى ذلك أدعو » فأنزل الله في قولهم (قل أي شيء أكبر شهادة) الآية — كذا في لباب النقول : وهذه الرواية لا تصح

في سندها محمد بن محمد مولى زيد بن ثابت ، قال الحافظ في تهذيب التهذيب : مدني مجهول تفرد عنه ابن اسحق اهـ وابن جرير رواه من طريق ابن اسحق . والتحقيق ان السورة نزلت بمكة دفعة واحدة الا ما استثني منها ولم يصح ان هذه الآية منه كما علمت مما كتبناه في مقدمة تفسير السورة

أما معنى الآية فهو ان الله تعالى أمر رسوله (ص) ان يسأل كفار قريش : أي شيء شهادته أكبر شهادة وأعظمها وأجدر بأن تكون أصحها وأصدقها ؟ ثم أمره بأن يجيب هو عن هذا السؤال بأن أكبر الاشياء شهادة الذي لا يجوز ان يقع في شهادته كذب ولا زور ولا خطأ هو الله تعالى وهو شهيد بيني وبينكم ، وأوحي اليّ هذا القرآن من لدنه لأنذركم به عقابه على تكذيبي فيما جئت به مؤيدا بشهادته سبحانه ، وأنذر من يبلغه هذا القرآن في كل مكان وكل زمان ؛ اذ كل من يبلغه فهو مدعو الى اتباعه حتى تقوم الساعة

شهادة الشيء حضوره ومشاهدته والشهادة به الاخبار به عن علم ومعرفة واعتقاد مبني على المشاهدة بالبصر او البصيرة (العقل) ومنه كون الشهادة بالتوحيد واثبات الشيء بالدليل والبرهان شهادة به ومشاهدة الشهود بين الرسول وبين قومه قسمان : شهادته سبحانه برسالة الرسول (ص) وشهادته بما جاء به . وشهادته عز وجل برسالة رسوله ثلاثة أنواع (أحدها) اخباره بها في كتابه بمثل قوله (محمد رسول الله * انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا * وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا * وما أرسلناك الا رحمة للعالمين * تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وانك لمن المرسلين * يس * والقرآن الحكيم * انك لمن المرسلين) فهذه شهادات وردت بغير لفظ الشهادة وهو غير شرط في صحتها خلافا لبعض الفقهاء ، ولا يقتضي التلفظ به حقيتها فقد حكى الله عن اخوة يوسف أنهم (قالوا يا أبانا ان ابنك سرق وما شهدنا الا بما علمنا) وهم لم يقولوا : نشهد ان ابنك سرق ، وقد سموا قولهم شهادة لانه عن علم بما ثبت عليه عند عزيز مصر ، وان كان ذلك الاثبات مصنوعا . وقال تعالى (اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون) فانهم صرحوا بلفظ الشهادة ولما كانوا غير مؤمنين بما شهد الله تعالى

يكذبهم فيها وقال تعالى (لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه) فهذه شهادة صرح فيها باللفظ ، وكذلك قوله تعالى (ويقول الذين كفروا لست مرسلا ، قل كفى بالله شهيدا بيني و بينكم) وهي بمعنى هذه الآية التي نفسرها

(النوع الثاني من شهادة الله تعالى لرسوله) تأييده بالآيات الكثيرة وأعظمها القرآن — وهو الآية العلمية العقلية الدائمة بما ثبت بالفعل عن عجز البشر عن الاتيان بسورة من مثله ، وبما اشتمل عليه من الآيات الكثيرة كاخبار الغيب ووعد الرسول والمؤمنين بنصره تعالى لهم واظهارهم على أعدائهم وغير ذلك مما ثبت بالفعل عند أهل عصره ونقل الينا بالتواتر . ومنها غير القرآن من الآيات الحسية والاخبار النبوية بالغيب التي ظهر بعضها في زمنه و بعضها بعد زمنه عليه أفضل الصلاة والسلام، كقوله في سبطه الحسن وهو طفل « ابني هذا سيد ولعل الله يصلح به بين فئتين من المسلمين » وقوله في عمار بن ياسر « تقتله الفئة الباغية » وقوله « صنفان من أهل النار لم أرهما بعد قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات على رؤوسهن كأسنمة البخت »

(النوع الثالث من شهادته لرسوله) شهادة كتبه السابقة له وبشارة الرسل الاولين به ، ولا تزال هذه الشهادات والبشائر ظاهرة فيما بقي عند اليهود والنصارى من تلك الكتب وتواريخ أولئك الرسل عليهم السلام على ماطرأ عليها من التحريف وقد تقدم بيان ذلك في تفسير السور السابقة ولاسيما المائدة ، ولا ننس هنا أخذه تعالى العهد على الرسل وقوله لهم (أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري؟ قالوا أقررنا، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) [راجع ص ٣٤٩ ج ٣]

وأما شهادته تعالى لما جاء به رسوله من التوحيد والبعث — وهو ما كانوا ينكرونه دون الآداب والفضائل والاحكام العلمية فهو ثلاثة أنواع (احدها) شهادة كتابه معجز الخلق بذلك كقوله (شهد الله أنه لا إله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله الا هو العزيز الحكيم * ان الدين عند الله الاسلام) وقوله (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير)

(ثانيا) ما أقامه من الآيات البينات في الأنفس والآفاق على توحيده واتصافه بصفات الكمال . وفي بيان ذلك في هذه السورة ما ليس في غيرها

(ثالثا) ما أودعه جل شأنه في الفطرة البشرية من الايمان الفطري بالألوهية وبقاء النفس وما هدى اليه العقول السليمة من تأييد هذا الشعور الفطري بالدلائل والبراهين . ولعلنا نشرح معنى الايمان الفطري الذي بيناه من قبل بيانا موجزا في تفسير آية العهد الإلهي الذي أخذه على بني آدم، وهي قوله تعالى في سورة الاعراف (واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ، ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا)

علم مما بيناه أن شهادته تعالى هي شهادة آياته في القرآن، وآياته في الاكوان وآياته في العقل والوجدان ، اللذين أودعهما في نفس الانسان ، وهذه الآيات قد بينها القرآن وأرشد اليها ، فهو الدعوى والبينة ، والشاهد والمشهود له ، وكفى به ظهورا بالحق واظهارا له أن لا يحتاج الى شهادة غيره على أن الشهود والادلة على حقيته كثيرة . وقد جاءت جملة « وأوحي الي هذا القرآن » معطوفة على جملة « الله شهيد بيني وبينكم » مصدرة بالفعل المبني للمفعول لأن المراد بنصها بيان أن القرآن هو موضوع الدعوة والرسالة المقصود منها بالذات ، وتدل بموضعها دلالة ايماء على أنه أعظم شهادة لله تعالى

وقوله تعالى « لأنذركم به ومن بلغ » نص على عموم بعثة خاتم الرسل عليه أفضل الصلاة والسلام ، أي لأنذركم به يا أهل مكة أو يا معشر قريش أو العرب وجميع من بلغه ووصلت اليه دعوته من العرب أو العجم، أو المعنى لأنذركم به أيها المعاصرون لي وجميع من بلغه الى يوم القيامة . قال البيضاوي وهو دليل على أن أحكام القرآن تعم الموجودين وقت نزوله ومن بعدهم وأنه لا يؤاخذ بها من لم تبلغه . اه يعني أن العبرة في دعوة الاسلام بالقرآن فمن لم يبلغه القرآن لا يصدق عليه أنه بلغته الدعوة، وحينئذ لا يكون مخاطبا بهذا الدين . ومفهومه أن الحجة لا تقوم بتبليغ دعوة الاسلام بالقواعد الكلامية والدلائل النظرية التي بني عليها ذلك العلم، ولكنا نرى المسلمين قد تركوا دعوة القرآن وتبليغه بعد السلف الصالح وترك العلم

به وبما يه من السنة الى تقليد المتكلمين والفقهاء . والقرآن حجة عليهم وإن جعلوا أنفسهم غير أهل الحجة

ومما روي عن مفسري السلف في الآية من الاحاديث والآثار ما أخرجه ابن مردويه وأبو نعيم والخطيب عن ابن عباس قال «من بلغه القرآن فكأنما شافهته به — ثم قرأ — (وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ)» ويؤيد الرواية أن القرآن لما كان متواترا بلفظه ومعناه كان من بلغه بعده صلى الله عليه وسلم كمن سمعه منه وإن كثرت الوسائط ، لانه هو الذي بلغه بلا زيادة ولا نقصان . وليس الاحاديث المروي كثيرها بالمعنى هذه المزية . ففي موضع اجتهاد : وأخرج ابن أبي شيبة وابن الضريس وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظي في الآية قال : من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي (ص) وفي لفظ : من بلغه القرآن حتى يفهمه ويعقله كان كمن عاين النبي (ص) وكلمه . وأخرج أبو الشيخ عن أبيّ بن كعب قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسارى فقال لهم « هل دعيتم الى الاسلام ؟ » فقالوا لا فخلى سبيلهم ثم قرأ (وأوحي إلي هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ) ثم قال — خلوا سبيلهم حتى يأتوا مأمنهم من أجل أنهم لم يدعوا »

ثم أمر الله تعالى رسوله (ص) بالشهادة له بالوحدانية التي جحدها المشركون وبراءته من قولهم وشهادتهم بالشرك فقال ﴿ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل : لا أشهد : قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون ﴾ قالوا ان الاستفهام هنا للتقرير مع الانكار والاستبعاد . وقد أمره تعالى أن يجيب بأنه لا يشهد كما يشهدون ، ثم أمره أمراً آخر بأن يشهد بنقيض ما يزعمون ويتبرأ منه وهو أن يصرح بأن الاله لا يكون الا واحداً ، ويتبرأ مما يشركونه به من الاصنام وغيرها أو من اشراكهم مهما يكن موضوعه ، وإنما قال «قل إنما هو إله واحد» فأعاد الامر ولم يعطف المأمور به على ما قبله لافادة أن الاقرار بالوحدانية مقصود بذاته لا يغني عنه نفي الشهادة بالشرك .

مناسك الحج

أحكامه وحكمه

بسم الله الرحمن الرحيم

وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (سورة آل عمران — ٣: ٩٦)

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ [illegible] ١٥٨)

الْحَجُّ أَشْـ[illegible] فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ. وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ (سورة البقرة ٢: ٩٣)

أما بعد حمد الله والصلاة والسلام على خاتم رسله محمد صلى الله عليه وسلم فيقول محمد رشيد بن علي رضا صاحب مجلة المنار: انني في شهر ذي القعدة سنة ١٣٣٤ عزمت على أداء فريضة الحج في خدمة والدتي، وكنت أتمنى ذلك منذ سنين ولم يتيسر لي، لموانع بعضها من قبلها وبعضها من قبلي، وقد خطر لي قبل السفر من مصر بثلاث ليال أن أكتب شيئا مختصرا في أحكام المناسك وحكمها سهل العبارة، مأخوذا مما صح في السنة، مع الاشارة الى أقوى مسائل الخلاف، وأن أطبعه وأوزعه على

من أسافر بصحبتهم من الحجاج ، تعليما للجاهل ، وتذكيرا للغافل ، ولكن لم يتيسر لي الشروع فيه الا في منتصف النهار من اليوم الثاني والعشرين من الشهر — وموعد السفر ٢٤ منه —

﴿ الحج والعمرة ﴾

الحج أحد أركان الاسلام الخمسة ، وهو عبادة بدنية مالية ، والصلاة عبادة بدنية فقط وكذلك الصيام ، والزكاة عبادة مالية فقط ، ومعناه القصد الى بيت الله الحرام بمكة المكرمة لاداء النسك فيه وفيما جاوره من الاماكن الشريفة ، وهذا النسك منه أركان وواجبات ، وسنن مندوبات ومستحبات

والعمرة كالحج في أركانه وواجباته وسننه الا الوقوف بعرفة فانه ركن من الحج [illegible] أشهره وفي غير أشهره كما سيأتي ، وهي واجبة عند بعض الأئمة وسنة عند الآخرين

ويجوز الجمع بين الحج والعمرة بأن ينويهما ويلبي الله تعالى بهما معا عند الاحرام ، ويسمى هذا [قرانا] وأن ينوي الحج ، وحده ويلبي به ثم يُدخل عليه العمرة ، ويسمى [إفرادا] وأن ينوي العمرة وحدها أو مع الحج ثم يتحلل منها بعد أداء أركانها ، ثم يحرم بالحج بمكة ، ويسمى هذا [تمتعا] لان صاحبه يتمتع بعد التحلل من احرامه بها بما يتمتع به غير المحرم من لبس الثياب والطيب وغير ذلك من محرمات الاحرام ، وعليه فدية وهي ذبح شاة أو صيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة أيام اذا رجع من الحج أو اطعام ستة مساكين من أوسط طعامه ، ككفارة اليمين وزكاة الفطر

واختلف علماء السلف والخلف في الافضل ، وأقوى الاقوال في ذلك أن التمتع أفضل مطلقا أو لمن لم يسق [الهدي] الى الحرم ·

و [الهدي] ما يهدى الى الحرم من الأنعام ليذبح فيه تقربا الى الله تعالى ، فمن ساقه من بلده أو طريقه فالأفضل له القران . وعلى هذا يكون التمتع هو الأفضل والأيسر لأمثالنا — من الحجاج المصريين وغيرهم ممن لا يسوق معه هديا — أن نحرم بالعمرة وحدها وأوسع الحج ممن تأتي بأركان العمرة كما يأتي بيانه ، ثم تحلل منها فتستبيح كل ما يباح لغير المحرم ، وتذبح شاة حتى اذا كان يوم [التروية] — وهو الذي قبل يوم عرفة — نحرم بالحج من مكة ، ولمن أحرم بالحج وحده أو بالحج والعمرة معا أن يتحلل بعمرة ثم يحرم بالحج كذلك

﴿ الاحرام والتلبية ﴾

لكل قطر من الأقطار مكان يسمى [ميقات الاحرام] لا يجوز تجاوزه بغير احرام لحاج ولا معتمر ، وفي غيرهما كحامل الميرة والتجارة خلاف ، فمن بلغ الميقات أحرم عنده بأن ينوي الحج والعمرة أو أحدهما ، ويلبي بما نواه بأن يقول : لبيك اللهم عمرة أو بعمرة ، أو لبيك اللهم حجا ، أو لبيك اللهم حجا وعمرة ، أو بحجة وعمرة . وتقدم أن الافضل لأمثالنا الاحرام بالعمرة فقط . ومن أحرم احراما مطلقا قاصدا النسك الذي فرضه الله تعالى في حرمه من حيث الجملة جاهلاً هذا التفصيل صح احرامه ، وعند اداء المناسك يأتي بواحد من الثلاثة التي ذكرناها . والاحرام بالمعنى الذي ذكرناه — وهو نية النسك من حج وعمرة فرض فيهما وهو ركن عند الجمهور وشرط على الراجح عند الحنفية

ويستحب الاغتسال للاحرام ولو لحائض ونفساء ، وكذلك التطيب قبله ، وأن يكون بعد صلاة إما صلاة فرض واما صلاة تطوع ، وأن

يحرم في ثوبين نظيفين — وكونهما أبيضين أفضل — وهي ثوبان لا يستران الكمين ، وان يكون أحد الثوبين ازارا يلف على النصف الاسفل من البدن والآخر رداء يوضع على العاتق ويستر النصف الاعلى منه دون الرأس فان ستره حرام على الرجال فلا يجوز للمحرم لبس العمامة ولا غيرها مما يوضع على الرأس ولا لبس القميص والقباء (القفطان) والبرنس والجبة والسراويل والخف والحذاء الذي يسمى الجزمة أو الكندرة . ولا ما في معنى ذلك من الثياب المفصلة المخيطة ومن لم يجد الازار والرداء أو النعلين لبس ما وجده، ففي صحيح مسلم عن ابن عباس أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم وهو يخطب بعرفات يقول السراويل لمن لم يجد الازار والخفان لمن لم يجد النعلين، ولا فدية عليه عند الشافعي وأحمد لانه لبس ذلك للضرورة فمتى زالت الضرورة بأن وجد الازار والنعلين وجب عليه نزع السراويل والخف ونحوهما، فان لم ينزعهما وجبت عليه الفدية وهي شاة يذبحها . وعند أبي حنيفة ومالك تجب عليه الفدية وان لبس ذلك للضرورة. ولا بأس بشد المنطقة أو الهميان الذي توضع فيه النقود في الوسط . ولا بأس بعقد الازار في وسطه أيضاً واذا كان يخاف سقوطه بغير عقد يتأكد العقد

والاصل في هذه المسألة حديث ابن عمر في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عما يلبس المحرم من الثياب فقال « لا يلبس القميص ، لا العمائم ولا السراويلات ولا البرانس ولا الخفاف الا أحد لا يجد نعلين فليلبس الخفين وليقطعهما أسفل الكمبين . ولا تلبسوا شيئا من الثياب مسه الزعفران ولا الورس » هذا لفظ مسلم . وفي حديث ابن

عباس المرفوع أنه صلى الله عليه وسلم لم يشترط في ترخيصه بلبس الخفين لمن لم يجد النعلين قطعهما . فبعض العلماء حل هذا الاطلاق على حديث ابن عمر وقال لابد من قطعهما ، وبعضهم قال ان حديث ابن عباس ناسخ لحديث ابن عمر لانه بعده

ولا يجب على الرجل كشف غير الرأس من بدنه ، ويجوز له أن يستظل بالمظلة (كالشمسية) وغيرها مما لا يمس رأسه ، ولكن يستحب له أن يعرض رأسه للشمس مالم يتأذ بذلك ، لان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم لم يكونوا يستظلون في الاحرام ، وقد رأى ابن عمر رجلا ظلل عليه فقال له : ايها المحرم اضْحَ لمن أحرمت له . أي ابرز للشمس لاجل من أحرمت له . يقال ضحي الرجل يضحى ضحىً ، وضحا يضحو ضحواً واضحى اذا برز للشمس أو أصابه الشمس .

وأما المرأة فلم ينهها النبي صلى الله عليه وسلم الا عن وضع النقاب على الوجه ولبس القفازين في اليدين فاحرامها في وجهها ويديها . والنقاب ما تستر به المرأة وجهها فلا يبدو منه الا محاجر العينين ومثله البرقع . قال العلماء فان سترت وجهها بشيء لا يمسه فلا بأس . وأما ستره عن الرجال بمظلة ونحوها فلا شبهة في جوازه ، و يجب اذا خيفت الفتنة من النظر . ومن أضره لباس الاحرام فله أن يتقي الضرر ولو بتغطية الرأس ومتى زالت الحاجة الى ذلك تركه

وأما التلبية فصيغتها المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » وكان صلى الله عليه وسلم يلبي من حين يحرم يرفع بها

صوته ، فرفع الصوت سنة للرجال ، فيرفع المحرم صوته بحيث لا يجهد نفسه ، والمرأة ترفع صوتها بحيث تسمع نفسها وكذا جارتها

ومعنى التلبية المبالغة في إجابة دعوة الداعي الى الحج ، ولا يزال العرب يجيبون من يدعوهم الى شيء ، بكلمة لبيك ، وأول من دعا الناس بأمر الله الى هذه العبادة ابراهيم عليه وعلى آله الصلاة والسلام . وذلك قوله تعالى له (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) والرجال هنا جمع راجل وهو الماشي على رجليه ، أي يأتوك مشاة وراكبين على الرواحل الضامرة البطون التي تأتي من الفجاج والطرق البعيدة . فمعنى لبيك اللهم أني أجيب الدعوة الى هذا النسك خاشعا لامرك متوجها اليك مقبلا عليك المرة بعد المرة . والتلبية واجبة عند المالكية ومسنونة عند الجمهور

وهذه التلبية المأثورة هي العبادة القولية التي تتكرر من أول الاحرام بالنسك الى الانتهاء منه . ويستحب تجديدها بتجدد الشؤون والاحوال كالصعود والهبوط والركوب والنزول واجتماع الناس وتلاقي الرفاق

﴿ دخول مكة والطواف ﴾

يستحب الاغتسال لدخول مكة ، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يغتسل له ، وكان يبيت [بذي طوى] وهو موضع عند الآبار التي يقال لها آبار الزاهر ، فمن تيسر له المبيت فيه والاغتسال فقد أصاب السنة .

والافضل دخول مكة نهارا ، وان يقصد المسجد الحرام توا ، والافضل أن يدخل من باب بني شيبة ، وروي في حديث ضعيف ان النبي (ص) كان يقول اذا رأى البيت (أي الكعبة المعظمة) « اللهم زد هذا البيت

تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة ، وزد من شرّفه وكرمه ممن حجه أو اعتمره تشريفا وتعظيما وتكريما وبرا » وروي ان عمر رضي الله عنه كان اذا نظر الى البيت قال: اللهم انت السلام ومنك السلام فحينا ربنا بالسلام »

واعلم أن ما يذكر في المناسك من الدعاء والثناء وما يلقنه المطوفون للحجاج قلما يصح فيه حديث مرفوع الى النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنه ماهو من أقوال الصحابة وغيرهم من سلف الامة .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يسمع أصحابه يدعون الله تعالى ويثنون عليه في النسك بما يلهمهم الله تعالى فيقرهم على ذلك. فعلم من ذلك أن ما لم يصح عن النبي (ص) من ذلك لا يحتمه أحد ولا يمنع منه ، ولكن لا يجعل شعارا عاما يلقنه كل الحجاج ويلتزمونه دائما بصفة خاصة، لان الشعائر لا تثبت الا بنص الشارع ، والظاهر ان الشارع ترك هذا الامر للناس ليدعو كل منهم ويثني بما يلهمه الله ويخشع له قلبه. ويسن أن يصلي بعد الطواف ركعتين

والثابت ان النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا دخل المسجد الحرام يبدأ بالطواف ، والطواف الاول من الحاج أو المعتمر يسمى طواف القدوم وهو واجب عند المالكية وسنة عند الائمة الثلاثة

ويراعي في الطواف شروط الصلاة كالوضوء وطهارة البدن والثياب وستر العورة لما رواه الشافعي والترمذي — واللفظ له — من حديث ابن عباس مرفوعا الى النبي صلى الله عليه وسلم « الطواف بالبيت مثل الصلاة الا انكم تتكلمون فيه فمن تكلم فيه فلا يتكلم الا بخير » ووردت آثار في النهي عن كثرة الكلام في الطواف أي وان كان بخير لم تمس اليه

الحاجة ، لانه يشغل القلب عن الخشوع في هذه العبادة

ولما كانت الطهارة شرطا لصحة الطواف امتنع الطواف على الحائض والنفساء فهي تؤدي جميع أعمال الحج سواه فتتربص به الى أن تطهر ، ويبتدئ من الحجر الاسود : يستقبله ويستلمه ويقبله ان أمكن من غير إيذاء نفسه أو إيذاء احد بالمزاحمة والا اكتفى باستلامه بيده — أي مسحه بها — وتقبيلها فان لم يمكن أشار اليه بيده . ثم يشرع في الطواف فيجعل البيت عن يساره فيطوف به سبعة أشواط أي مرات . ويستلم من الاركان الركنين اليمانيين لانهما على قواعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام دون الشاميين لانهما في داخل البيت

والركنان اليمانيان هما الجنوبيان ومنهما الذي فيه الحجر الاسود منهما [الركن الاسود] فاذا ذكر وحده [illegible] والآخر وحده قيل الركن اليماني. والشاميان هما الشماليان فاذا ذكر كل منهما وحده قيل [الركن الشامي] وهو المقابل لبلاد الشام [والركن العراقي] وهو المقابل لبلاد العراق ، وانما يقال في تثنيتهما اليمانيان والشاميان من باب التغليب

هذا وإن في الحج ثلاثة أطوفة : طواف القدوم الذي ذكرناه ، وطواف الافاضة وهو ركن من أركان الحج باتفاق الائمة ووقته بعد الوقوف بعرفة، وطواف الوداع وهو واجب عند الجمهور ومندوب عند المالكية. وللحاج وغيره أن يكثر من طواف التطوع ما استطاع

﴿ السعي بين الصفا والمروة ﴾

السعي بين الصفا والمروة ركن من أركان الحج والعمرة عند الجمهور ، وعند الحنفية واجب غير ركن ، ويشترط أن يكون بعد الطواف وعند

المالكية يجب ذلك وليس بشرط ، ويجب عندهم الموالاة بينه وبين الطواف، وقال الجمهور انه سنة لا واجب. ويطلق على السعي اسم الطواف والتطوف كما ثبت في القرآن والاحاديث ، واختار الفقهاء اسم السعي للتفرقة بينه وبين الطواف بالبيت

وكيفيته أن يبدأ بالصفا فيصعد اليها ويستقبل البيت (الكعبة) فيهلل ويكبر ويدعو الله تعالى ثم ينزل ويذهب الى المروة فاذا انتهى اليها توجه الى جهة السعي ليكون مستقبلا للبيت ويدعو الله تعالى كما دعاه عند الصفا، فهذه مرة، ثم يعود الى الصفا ثم الى المروة الى أن يتم سبعة أشواط يرمل في ثلاثة منهن بين الميلين الاخضرين (وهما عمودان في جدار الحرم) والرَمَل سرعة في المشي، ولا يشترط في السعي ما يشترط في الطواف من الطهارة ولكن يستحب، ويجوز السعي راكبا وماشيا والمشي أفضل للقادر عليه .

روى مسلم وغيره من حديث جابر ان النبي صلى الله عليه وسلم لما دنا من الصفا قرأ (ان الصفا والمروة من شعائر الله) وقال « أبدأ بما بدأ الله به (وفي حديثه عند النسائي « ابدؤا بما بدأ الله به ») فبدأ بالصفا فرقي عليه حتى اذا رأى البيت استقبل القبلة فوحد الله وكبره وقال : « لا إله الا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير : لا إله الا الله وحده أنجز وعده ، ونصر عبده، وهزم الاحزاب وحده » ثم دعا بعد ذلك فقال مثل هذا ثلاث مرات ثم نزل الى المروة » — الحديث، وفيه انه فعل في المروة كما فعل في الصفا . فينبغي ان يحفظ هذا وان يدعو الساعي بعده بما يفتح الله به عليه لنفسه وأهله واخوانه وأمته

(تنبيه) ان المكان الذي كان يرقى النبي صلى الله عليه وسلم اليه على الصفا قد بني عليه والصعود اليه ليس شرطا لصحة السعي فمن وصل الى أسفل البناء هنالك وسعى ولم يصعده أجزأه ذلك ولكن الافضل ان يصعده لموافقة السنة في الصعود

﴿ الوقوف بعرفة ﴾

يخرج الحجاج من مكة يوم التروية (وهو الذي قبل عرفة ويسميه العوام بمصر والشام [يوم الوقفة] ويسمون يوم عرفة [يوم الوقفة] محرمين لان من كان متمتعا يحرم في ذلك اليوم كاحرامه من الميقات ، والسنة أن يحرم كل واحد من المكان الذي هو نازل فيه، وله أن يحرم من خارج مكة ان كان غير مكي فان المكي انما يحرم من أهله . والسنة أن يبيتوا بمنى ولا يخرجوا منها حتى تطلع الشمس كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن [illegible] [نمرة] [illegible] من يمين الطريق وهو موضع في حدود عرفة [illegible] فيقيموا [illegible] الزوال ثم يسيروا منها الى بطن الوادي وهو الذي صلى النبي صلى الله عليه وسلم فيه الظهر والعصر قصرا وجمعا وخطب ، فيصليها الحجاج كذلك ويخطب بهم الامام . وهناك مسجد يقال له مسجد ابراهيم بني في أول دولة بني العباس ثم يذهبون الى عرفات والعدول عن هذه الطريق الى طريق [المأزمين] ودخول [عرفة] قبل الزوال كلاهما مخالف للسنة ولكن لا يجب به شيء لانه ليس تركا لشيء من واجبات الاحرام .

ويقفون بعرفات الى غروب الشمس فاذا غربت خرجوا من بين العلمين أو من جانبيهما . ويجتهد الحاج في الذكر والدعاء في هذه العشية فهي أفضل الاوقات لهما وأرجاها للمغفرة والرحمة. ولم يعين النبي صلى الله عليه وسلم لعرفة دعاء ولا ذكرا ليجتهد كل انسان في ذلك بقدر معرفته وحسب حاجته . فيهلل ويكبر ويدعو ماشاء الله من الادعية الشرعية . ويسن الغسل يوم عرفة ، ولا يسن الصعود الى الجبل الذي هناك الذي يسمى جبل الرحمة ، — وهو جبل إلال — ولا دخول القبة التي فوقه التي يقال لها قبة آدم ولا الصلاة فيها. والسنة أن يفيضوا من عرفات

عند الخروج على طريق [المأزمين] فان النبي (ص) خرج منها على هذه الطريق لانه دخلها من طريق [ضب] فسنته في المناسك كسنته في الاعمال والمواسم ، اذا جاء من طريق رجع من أخرى ، كما كان يدخل المسجد من [باب شيبة] ويخرج بعد الوداع من [باب حزورة]

﴿ المبيت بِمُزْدَلِفَةَ ورميُ الجمار بمنى ﴾

يسن المبيت بمزدلفة بعد عرفة فهي المشعر الحرام الذي قال الله فيه (فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام) والوقوف عند [جبل قزح] أفضل ، ثم يمضون من المزدلفة بعد صلاة الفجر فاذا أتوا منى رموا [جمرة العقبة] بسبع حصيات ولا يرمون يوم النحر غيرها ، وكيفية الرمي ان يستقبل الجمرة بحيث يكون البيت عن يساره ومنى عن يمينه ويرفع يديه بالرمي ويكبر مع كل حصاة . وان شاء قال مع ذلك : اللهم اجعله حجا مبرورا وسعيا مشكورا وذنبا مغفورا . ويستحب تكرار التلبية بين المشاعر كالذهاب من عرفة الى مزدلفة ومن مزدلفة الى منى ، ولم يصح في السنة التلبية في عرفة ولا مزدلفة ، ويشرع في رمي الجمرة استبدال التكبير بالتلبية — أي جعل التكبير للعيد بدلا من التلبية للحج ، لانه حينئذ يشرع في التحلل الذي تنتهي به المناسك . ومتى رمى جمرة العقبة نحر هديه ان كان معه هدي . وكل ما سيق من الانعام من الحل الى الحرم فهو هدي بالاتفاق ويسمى أضحية أيضا ، وأما ما يذبح يوم النحر في الحل فانه أضحية وليس بهدي . وأما ما يشترى في منى أو غيرها من أرض الحرم ويذبح فيها فهو ليس بهدي عند المالكية وعند الائمة الثلاثة يسمى هديا . ويقول عند نحر الابل وذبح غيرها : بسم الله والله أكبر . اللهم منك ولك . اللهم تقبل مني كما تقبلت من ابراهيم خليلك .

﴿ الحلق أو التقصير ﴾

بعد رمي جمرة العقبة يحلق الرجل شعر رأسه أو يقصره بأن ينقص منه مقدار الانملة أو أقل أو أكثر ، وتقص المرأة ولا تحلق ولا تزيد على قدر الانملة . والحلق أو التقصير ركن من أركان الحج لا يتم الا به في مذهب الشافعي وعند الجمهور

واجب لاركن . وبالحلق أو التقصير يكون التحلل الاول من الاحرام فيحل به المحرم ماكان محرما عليه بالاحرام الا النساء

وبعد هذا يأتي الحاج مكة فيطوف طواف الافاضة الذي هو طواف الركن كما تقدم فاذا طاف هذا الطواف حل له كل شيء مما ذكر حتى النساء

ثم يرجع الى منى فيرمي بقية الجمرات ، والافضل ان يرميها في أيام التشريق الثلاثة وله أن يرميها في يومين لقوله تعالى (واذكروا الله في أيام معلومات فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى)

ويستحب في رمي الجمار ان يكون بعد الزوال وان يبدأ بالاولى وان يكبر مع كل حصاة ، ويدعو فيطيل الدعاء . واذا قال في دعائه : اللهم اجعله حجا مبرورا وسعيا مشكورا وذنبا مغفورا — فهو حسن



﴿ طواف الوداع ﴾

تقدم حكمه ويسن ان يكون هذا الطواف آخر عهد حجاج الآفاق بمكة ليكون مسك الختام .

انتهت الاحكام ولم نشأ نشر [حكم المناسك واسرارها] في هذا الجزء من المنار لانها منشورة في [باب الفتوى] من المجلد السادس عشر فليرجع اليها من شاء في ص ٦٧٥

مدرسة

دار الدعوة والإرشاد

دروس سنن الكائنات

محاضرات علمية طبية إسلامية للدكتور محمد توفيق صدقي

١٣

الدرن Tuberculosis

يراد بهذا الداء تكوّن أجسام صغيرة في عضو أو أكثر من أعضاء الجسم(١) ويسمي الاطباء المحدثون هذه الحبيبات الدرنات أو الدرن(٢) وهي تنشأ من باسيل اكتشفه العلامة الالماني كوخ سنة ١٨٨٢ ميلادية

أوصاف هذا الباسيل — هو عصيات مستقيمة أو منحنية قليلا طولها نحو ٣ ميكرونات وعرضها [illegible] من الميكرون ذات أطراف مستديرة في كل منها نقطة لامعة أو أكثر ظن سابقا أنها حبيبات للميكروب ، والحقيقة انه لايتوالد الا بالانقسام وهو عديم الحركة ولاأهداب له (خلافاً لماذهب اليه بعض الباحثين) ويعيش في الهواء وفي غيره من الغازات بل في الفراغ ، وأحسن حرارة تناسبه ما كانت درجتها ٣٧ سنتجراد ولكن نموه بطيء جدا

تركيب الدرن — تتكون كل درنة من خلايا تحيط بها تشبه كريات الدم البيضاء وفي داخلها خلايا تشبه خلايا البشرة وفي مركزها خلية أو أكثر كبيرة ذات نويات عديدة . وقد يوجد بين هذه الخلايا منسوج آخر دقيق جدا يؤلف بينها . ويوجد الميكروب بين هذه الخلايا أو فيها خصوصا حول الخلية المركزية الكبرى أو فيها كما في درن الحيوانات. وفي بعض الأحوال تكون هذه الخلية

(١) قد يصيب أي عضو من الجسم أو أي جزء منه وتكثر اصابته للرئتين ويقل للشغاف (الغشاء المحيط بالقلب) (٢) أصل معنى الدرن في اللغة الوسخ

معدومة وفي البعض الآخر تكون الخلايا البشرية كذلك معدومة فتكون الدرنة من خلايا كالكريات البيضاء فقط . وقطر الدرنة الواحدة عادة مليمتر واحد أو اثنان . وتشاهد الدرنات في هذا المرض بوضوح في الرئتين أو الكبد أو الكليتين

وكلما كبرت الدرنة مات وسطها وذلك اما لعدم وصول أوعية الدم إليه أو لسموم الميكروب أو للسببين معا، فاذا مات الوسط صار مصفرا وقوامه كالجبن وهذا الوسط الميت يزداد اتساعا بينما محيط الدرنة يغير على ما أحاط به من الانسجة وهلم جرا . وهذه الدرنات تنشأ بسبب تهيج العضو بالميكروب فتكاثر الخلايا حوله بانقسامها الى عدة أقسام . وتهرع اليها الكريات البيضاء لمقاتلته فتحيط بها فيصيبها ما ذكر . وباجتماع هذه الدرنات بعضها مع بعض تكون درنات كبرى فينشأ من ذلك أخرجة (جمع خراج) في العضو المصاب

وقد تتحول الدرنة الى مادة كلسية (جيرية) برسوب فسفات الكلسيوم فيها على الاكثر فيموت النسيج [illegible]

وهذه الدرنات تحدث كثيرا في [illegible] وقد يكون حولها المنسوج الليفي الضام . ويجوز أن يغير هذا المنسوج على الدرنة ويطبق عليها فتضمر وتتناقص حتى تستحيل الى نقطة ليفية وبذلك يشفى الدرن أيضا

أما اذا كانت قوى المريض ضعيفة فتلتهب الانسجة حول الدرنات وتزداد حالة العليل سوءا فوق سوء ، وفي آخر الامر تتقيح الدرنات وما حولها و يشترك مع هذا الميكروب ميكروبات أخرى فتتكون أخرجة وكهوف كما يحصل كثيرا في رئة المسلولين

الاسباب – ميكروب هذا الداء منتشر كثيرا بين الناس وبعض الحيوانات . ولمعرفة كيفية العدوى به يجب أن نقسم البحث هنا الى مسألتين :—

(الاولى) الاستعداد الشخصي : للوراثة أثر عظيم في العدوى بهذا الداء فانه يغلب حدوث هذا المرض في أولاد المسلولين . ولا يتوهم أحد أن الذي ينتقل من الوالد الى ولده هو الميكروب بل استعداد خاص فقط اللهم الا في أحوال نادرة جدا ، ولذلك كثيرا ما يولد الولد في صحة لا بأس بها أو جيدة ثم يصاب بعد ذلك بالدرن

وهناك مهيئات كثيرة للعدوى تسبب نهاكة القوى فيضعف الشخص عن مقاومة الميكروب فيقهره ، وأهم هذه المهيئات (أ) الازدحام وفساد الهواء بأي سبب كان (ب) قلة الاغذية (ج) اجهاد قوى الجسم فوق طاقته بأي عمل كان ككثرة العدو أو الانهماك في الجماع أو في السهر أو جلد عميرة أو المطالعات الطويلة والمباحث العقلية المتعبة خصوصا اذا صاحبها الفقر وفساد الهواء (د) كثرة الحمل والولادة أو الارضاع (ه) كثرة التردد الى الأماكن الرطبة المظلمة التي يتعذر دخول الشمس فيها (و) الحمى التيفودية (ز) الاسراف في شرب الخمور (ح) البُوَال السكرى (ط) الزهري اذا أهمل حتى أفسد البنية

هذه هي المهيئات العامة وهناك مهيئات أخرى خاصة بالعضو المصاب ويسمونها بالمهيئات الموضعية مثل كثرة النزلات الشعبية أو الرئوية وتهيج الرئة ببعض الغازات أو بغبار بعض المعادن وغيرها كما يحصل في المصانع

والعمر تأثير كبير أيضا في العدوى فترى ان الدرن كثيرا ما يصيب الصغار ففي الاطفال تشاهد كثيرا اصابتهم [illegible] أو [illegible] أو الغدد اللمفاوية أو العظام أو المفاصل ، وفي [illegible] الدرن الرئوي (وهو المسمى بالعربية السِّل أو الهُلاس) وأما الاشخاص الذين عمرهم فوق الاربعين فتقل اصابتهم بالدرن ولا ينافي ذلك أنه يصيب الشيوخ أحيانا قليلة وفي تلك الحال يغلب أن تكون اصابتهم مزمنة أي ان المرض بدأ فيهم قبل الاربعين

(المسألة الثانية) مدخل الميكروب : يدخل الميكروب الجسم من طريق الجلد أو الرئتين أو القناة الهضمية

(أ) طريق الجلد وهو نادر الوقوع ومن أمثلته يشاهد أحيانا ثآليل في أيدي المشرحين لجثث المسلولين ، وفي هذا الثؤلول توجد ميكروبات الدرن وقد تنتشر منه الى الرئتين أو غيرها

وهناك درن يصيب الجلد يسميه الافرنج [لوبس Lupus] اخذا من كلمة لاتينية معناها [الذئب] لان هذا الداء يصيب كثيرا الوجه فتتأكل أجزاء كبيرة منه تأكلا يشبه نهش الذئب . ولكن هذا الدرن الجلدي قل أن ينتشر

ميكروبه في الاحشاء . وهذا الطريق الجلدي غير مهم في الغالب

(ب) طريق الرئة وهو طريق مهم جدا . ولا يكفي لحصول الداء من هذا الطريق مجرد استنشاق بعض نفس المسلول أحيانا ، ولكن يحدث المرض اذا كثر الاختلاط بالمريض والقرب منه حتى يستنشق الانسان الهواء المشتمل على ذرات تخرج من صدر المسلول أثناء سعاله فتنتشر في الهواء المحيط به ، أما نفسه العادي فلا يوجد فيه الميكروب . واذا بصق المريض على الارض أو غيرها وجف البصاق تطايرت منه أجزاء فيها الميكروب وتكون خطرا شديدا على مستنشقيها

ويكثر وجود الذرات التي فيها الميكروب على بعد نصف متر من فم المصاب فاذا بعدت منه مترا ونصف متر قلّ أن يصيبك منها شيء

وهناك بعض الحيوانات الداجنة التي تصاب بالدرن كالببغاء وتكون أيضا سببا في العدوى بهذا الداء من هذا الطريق

ومن الحيوانات الاخرى الداجنة التي تكثر اصابتها به الخيل ويقل وجوده في الكلاب والقطط

(ج) طريق القناة الهضمية وهو أهم الطرق فان كثيرا من الحيوانات التي تؤكل يوجد فيها هذا الداء اذ انه كثيرا ما يصيب البقر والخنازير والدجاج والارانب وخنازير الهند ، أما المعز فقل أن تصاب به وكذلك الضأن

ولبن هذه الحيوانات يشتمل كثيرا على باسيل الدرن اذا أصيبت ضروعها به ولما كانت معرفة الضروع المصابة عسرة في أول الامر كان من الواجب ألا يشرب اللبن الا بعد غليه مدة خمس دقائق على الاقل . وقد يوجد الميكروب في لحم هذه الحيوانات وأحشائها . ونظرا لانتشار الدرن في البقر يشاهد هذا الداء كثيرا في بطون الاطفال الذين يربون بلبنها . وقد دلت التجارب أن الحيوانات الصغيرة اذا ابتلعت ميكروب الدرن نفذ في جدر أمعائها وأصاب غدد الساريقا فينشأ عنه مرض هذه الغدد أو تدرن معوي أو بريتوني وقد يصل بعد مضي زمن الى أجزاء الجسم الاخرى فيصيب الغدد العنقية ويحدث داء الخنازير وقليلا ما يصيب رئتي الصغار . أما الشبان فاذا نفذ الميكروب خلال أمعائهم لم يصبها بشيء حتى يصل

إلى الرئتين فيحدث السل الرئوي . وهذا الفرق يشاهد أيضا بين الصغار والشبان اذا حقنوا بذرات من الكربون (الفحم) فتبقى في بطن الصغار وتصل الى رئة الكبار . ومن ذلك استدل بعض العلماء على أن الرئتين قد تصابان بالسل من طريق البطن اذا أكل الشخص لحما أو لبنا مصابا بل رجح هؤلاء العلماء أن اصابة الرئتين بالسل من هذا الطريق هي أكثر حدوثا من طريق التنفس

وفي أكثر الاحوال تكون الاصابة بالدرن موضعية في أول الامر يعني أنها تكون قاصرة على عضو واحد ومن ثم قد تنتشر تدريجيا الى الاعضاء الاخرى إما بسير الميكروب خلال الانسجة أو بسيره في الاوعية المفاوية . وهناك درن عام تصاب به فجأة أعضاء كثيرة من الجسم دفعة واحدة ولكن يكثر في مثل هذا النوع أن يكون مسبوقا أيضا باصابة صغيرة موضعية كدرن الحصية مثلا أو غدد العنق أو غير ذلك

ومما سبق يعلم أن أهم أنواع الدرن نوعان — الدرن العام والدرن الرئوي :



الدرن العام أو الدخني

سمي هذا النوع بهذا الاسم لان الدرنات تكون منتشرة في جميع أجزاء الجسم تقريبا وتشبه حبات الدخن اذا نثرت فيها

الاعراض — هذه الاعراض تكون في أول الامر مبهمة فيشتكي المريض من ضعف عام ونحافة واقواء (فقد شهوة الطعام) وصداع وحمى وقد يوجد أثر من الزلال في البول وتسوء حال المريض شيئا فشيئا ثم تظهر أعراض أخرى تبين إصابة الرئتين ككثرة السعال والبصق أو يصاب الشخص بأعراض تبين إصابة البطن كالاسهال التماسي والمغص أو بأعراض أخرى تبين إصابة السحايا كالتشنجات والشلل . والمراد بذلك ان تكون أعراض انتشار الدرن في الاعضاء المذكورة أظهر من انتشارها في غيرها وان كانت كلها مصابة به

ويحصل الموت في مدة تتراوح بين ٣ أسابيع الى ١٠ ولا يعلم باليقين أن أحدا أصيب بهذا الداء وشفي منه

المعالجة — عديمة الجدوى وانما تعالج الاعراض فقط ، ويعطى المريض السوائل المغذية وبعض المنعشات مع بعض مركبات الافيون لتسكين الألم والسعال، ومن المنعشات النافعة جدا النوشادر ، ويجب أيضا ان تكون سكنى المريض في الاماكن التي تكون طلقة الهواء وتدخلها الشمس كثيرا

الدرن الرئوي أو السل

هذا الداء يصيب الرئتين بسبب تهييج باسيله لمنسوجها فتتكون الدرنات ويلتهب ما حولها فيتصلب منسوج الرئة ثم يتقيح ويتحول الى تجاويف ممتلئة بمدة وصديد تسمى بالكهوف . ويكون ميكروب الدرن مصحوبا بميكروبات أخرى من الانواع الجرثية غالبا اذا حدثت هذه التغيرات المذكورة أخيرا فانها تساعده في احداثها

الاعراض — سير هذا الداء مختلف فبعضه يكون سريعا والبعض الآخر يكون بطيئا فيمكث عادة من ستة أشهر الى بضع سنين

وأهم أعراضه السعال [illegible] والبصق [illegible] والنحافة الزائدة والحمى ونزف الدم من الصدر

وتبدأ هذه الاعراض بطرق مختلفة ، ففي كثير من الاصابات تبدأ بالسعال وبصق المخاط مع الصديد زمنا ما ، وكثيرا ما يتوهم الشخص أن داءه من البرد فلا يعبأ به كثيرا في أول الامر ، وفي حالات أخرى تبدأ بالنزف الرئوي ، وفي هذه الحالات قد يكون الشخص متمتعا بالصحة فيندهش بمفاجأة النزف الرئوي له بعد سعال خفيف فيخرج منه بضعة دراهم أو أوقية وقد يزيد الدم الى نصف لتر وبعد زمن تظهر باقي الاعراض ، وقد يعاوده النزف عدة مرات . وفي حالات قليلة يبدأ المرض بشكل التهاب رئوي أو التهاب پليوراوي مع التكلب في الصدر . وهناك بعض الحالات التي تبدأ باضطراب في الجهاز الهضمي فيصاب الشخص بالاقياء مع القيء المتكرر والنحافة ثم تتم باقي الاعراض المذكورة

مضاعفات هذا الداء

الجهاز التنفسي — يصاب بالتهاب الحنجرة ، فيبح صوت المريض وفي بعض

الاحوال النادرة قد يكون ذلك أول ما يلاحظ على المريض. ويصاب هذا الجهاز أيضا بالتهاب البليورا كما سبق مع الانسكاب المصلي أو الانسكاب الصديدي أو الدموي أو تخترق الرئة فيدخل الهواء في تجويف الصدر وبذلك يبطل تنفس الرئة المصابة

الجهاز الدوري — يصاب القلب بالضعف والتمدد في الاحوال المزمنة . وقد يصيب الدرن بعض شرايين الرئة فيفجرها ويحصل بسبب ذلك نزف شديد قد يكون سببا في الموت العاجل

الجهاز الهضمي — يصاب كما قلنا بالإقهاء والغثيان والقيء وعسر الهضم والاسهال وهو كثير الحصول في درجات المرض الاخيرة . وقد يصاب البريتون أيضا بالتدرن ، وقد تصاب الكبد والطحال والكليتان والامعاء بتغير مخصوص في أنسجتها يسمى عند الاطباء [الارتشاح الشمعي Waxy degeneration] ويشاهد أحيانا ناسور في الشرج بسبب هذا الداء أيضا

الجهاز العصبي — قد يصاب بدرن في السحايا

وقد تصاب أعضاء أخرى بالدرن [illegible] شدة فوق شدته

نهاية المرض — يحصل الموت بهذا الداء بالطرائق الآتية : نهاكة القوى أو النزف أو اختراق الرئة أو التهاب السحايا أو انثقاب الامعاء أو التسمم البولي

الانذار — اذا اكتشف هذا الداء في أول درجاته قد ينجح فيه العلاج ويشفي منه المريض غير أن أثر الدرنات يبقى في الرئة . وفي بعض الاحوال يسرع الموت الى المريض في أشهر قليلة وقد يمكث المصاب به عدة سنين قد تمتد الى الخمسين

المعالجة — لا يوجد دواء لهذا الداء محقق النفع ، وانما يتلخص العلاج في الكلمات الآتية : يوضع المريض في أصح الاهوية وأجودها وأكثرها مرضا للشمس ، ويكثر من الراحة والنوم لتوفير قواه وكذلك يكثر من الاغذية الجيدة السهلة الهضم كاللبن والبيض والعسل واللحوم بأنواعها الى غير ذلك ، واذا اشتدت الحمى أو أصاب المريض الاسهال وجب عليه الاقتصار على الاغذية السائلة . وبالاختصار يجب اتباع جميع القوانين الصحيحة حتى تقوى البنية فتغلب على المرض

ويعطى المريض الادوية المقوية كزيت السمك والحديد (بشرط ان لا تكون حرارة المريض مرتفعة جدا) والزرنيخ والكينين وغير ذلك ، وهناك أدوية مطهرة للصدر يعرفها الاطباء فلا حاجة لذكرها هنا

ويجب أثناء المرض ان يبادر الطبيب بعلاج كافة الاعراض والمضاعفات بجميع الوسائل الممكنة السريعة التأثير حتى لا تنهك قوى المريض

الوقاية — تكون بما يأتي :—

(١) يتجنب المريض البصق على الارض أو في أي مكان يمكن أن يتصل منه الميكروب الى الاصحاء . ومن أحسن الوسائل أن يكلف المريض بالبصق في مباصق خاصة (منها ما يحمل في الجيب) ويوضع فيها محلول مطهر كحامض الفنيك بنسبة ٣% من الماء . واذا بصق في منديل وجب حرقه أو غليه غليا طويلا قبل أن يمسه أحد

(٢) يجب على كل شخص أن يتقي بصق المريض حتى لا يكون في طريق الذرات التي تتطاير منه أثناء السعال وغيره ، فلا يجوز النوم معه في الفراش أو الجلوس بالقرب منه . ويجب على المريض أن يتحاشى الزواج خدمة لنفسه حتى لا تضعف قواه ولا يأتي بنسل ضعيف وخدمة للامة بعدم عدوى النساء وبعدم ايجاد ولد له يكون ضعيفا أو مصابا بالسل مثله

(٣) يجب تهوية الاماكن التي يسكنها المسلولون وتعريضها لشعاع الشمس كثيرا وتنظيفها دائما بالمحاليل المطهرة وغلي كل مافيها من أواني ومُلاآت وغيرها

(٤) يجب ان تتقي الامهات المسلولات ارضاع أبنائهن

(٥) يجب على الناس كافة طبخ لحوم الحيوانات طبخا جيدا وتقطيع اللحم الى قطع صغيرة مع اطالة مدة الغلي حتى تصل الحرارة الى ما قد يكون في باطنها من ميكروب الداء ، فقد ثبت أنه اذا زادت قطعة اللحم عن ستة أرطال فلا تكون درجة الحرارة في باطنها كافية لقتله . وكذلك يجب غلي اللبن غليا جيدا مدة خمس دقائق على الاقل . واذا علم أن حيوانا مصابا بالدرن وجب اجتنابه وتحاشي أكله أو شرب لبنه وابعاده عن الحيوانات الاخرى السليمة . وهناك طريقة لتمييز الحيوانات المصابة

بالقرن عن غيرها ، وذلك باستعمال (البيوبر كيوابن) وسيأتي الكلام على ذلك تفصيلا . وليلاحظ عدم الغلو في غلي اللبن كأن يوضع في اناء مغلق وتطول مدة الغلي فانه قد ثبت أن ذلك يفسد بعض مواده الضرورية لحياة الجسم ، فاذا اقتصر الشخص على شرب مثل هذا اللبن البالغ في تعقيمه كالاطفال مثلا فقد يصاب بداء السكاح أو بالاسكربوط ، فلذا يجب الاعتدال في تطهير اللبن

واذا خيف على الطفل من هذين الداءين فيحسن تغذيته بالاشياء الآتية مع اللبن وهي القشدة وزيت السمك وعصير البرتقال المحلى بالسكر أو بالعسل ومرق اللحم ، واذا كان للطفل بعض أسنان فلا بأس في اعطائه قليلا من الموز بعد عجنه ولو باليد النظيفة

(٦) يجب على كل شخص أن يتجنب كل ما ينهك القوى ويفسد الصحة كالسكنى في الاماكن الفاسدة الهواء أو الاحداث في الدخول الى الاماكن المكتظة بجماهير الناس كالمسارح و[دور الصور المتحركة] ونحو ذلك وتجنب السهر الطويل واجهاد الجسم أو العقل وكثرة [illegible] ، وينبغي الاكثار من الرياضات البدنية مع الاستعداد لاستنشاق الاهوية النقية — كالتي في الغابات والبحار — وتعاطي الاغذية الجيدة السهلة الهضم والاكثار من النوم واتقاء شرب الدخان واستنشاق الغازات والابخرة المتصاعدة من النيران والمصانع وغيرها وبالجملة فالواجب التزام قواعد الصحة كافة وعدم التهاون في شيء منها .

العرب والاسلام
والترك الاتحاديون

ان قراء المنار بعد الانقلاب العثماني يعلمون أن الجرائد الاسلامية المتعدية أول من رمى الاتحاديين بالكفر والالحاد ، وان المنار كان أول الصحف الاسلامية دفاعا عنهم ، ولما كثر الخلاف في أمرهم رحلنا الى الآستانة بعد تمهيد مع جمعية الاتحاد والترقي المركزية للقيام بمشروع الدعوة والارشاد في الآستانة والسعي في التوفيق

بين الترك والعرب وكانت نوابر الخلاف والتخاصم قد نجمت وامتدت من العاصمة الى الولايات . وقد اقمت في الآستانة سنة كاملة اختبرت فيها الاتحاديين اختبارا تاما لا أزال أرى في كل سنة من الآيات ما يؤيده ويقنعني بأني قد سبقت الى إدراك ما لم يدركه كله العثمانيون ولا الاجانب

ولو كنت ممن يبيع دينه وقومه بالمال والجاه كالشيخ عبد العزيز جاويش لامكنني ان أنال في الآستانة من الاتحاديين أنفسهم ما لا أطمع لعمري في نيل مثله ، فقد مناني الاتحاديون أعظم الاماني لانهم كانوا يظنون اني ما دافعت عنهم ورددت على من سبق الى رميهم بالكفر والالحاد وافساد هذه الدولة الا لان اسلامي سياسي يدور مع المنفعة الشخصية أنى دارت

ويعلم قراء المنار اني قد حملت على الاتحاديين بعد عودتي من الآستانة حملات منكرة لم يحمل عليهم أحد مثلها في الشدة ، لا يعلمون اني لم أكتب شيئا يذ في مصلحة الدولة العثمانية [illegible] الاتحاد الحقيقي بين العرب والترك ، فانا لم أعاد الدولة ولا [illegible] كل ما كتبته كان خدمة للاسلام والدولة [illegible] وجمهور المتعلمين فيهم أضعاف الموافقين لي عليه من العرب ، ولان الذين كانوا يعرفون مقاصد الاتحاديين الالحادية من العرب قليلين جدا ولعلهم لم يكثروا الا بعد أن رأى من رأى من خواص العرب في سورية مصلوبين في أعظم مدنها عمرانا وسمع من سمع أخبارهم ثم بما كان من أمرهم مع الشريف الاكبر أمير مكة المكرمة

وقد كتب بعض العرب العثمانيين من اسرى الحرب وغيرهم مقالات في مقاصد الاتحاديين وعداوتهم للعرب والاسلام نشروها في المقطم والاهرام فظن كثير من المصريين انها مقالات مصنوعة اخترعها كتاب الجريدتين حتى ان منهم من لم يصدق ما نقل من كتاب [قوم جديد] وكتاب [اتحاد اسلام] وانما لم يصدق هؤلاء هذه الاخبار لانهم لا يريدون ان يصدقوا ما لا يلذ لهم تصديقه . ولو كانوا ذوي غيرة على الدولة والدين وحرص على بقائهما كحرصهم على انفسهم وراحة بالهم لتحروا وبحثوا عن أصل كل ما يقال في هذا الموضوع ليكونوا على بصيرة من أمر

أعظم الاشياء موقعا من أنفسهم وأهمها لديهم

كان مقصد الاتحاديين خفيا ثم عرف رويدا رويدا ، ثم اشتهر وتواترت أخباره في جميع الامم . وانا ننقل من ذلك عن جريدة الاهرام ما يأتي :

الاسلام والجامعة الطورانية

كيف يسعى الاتحاديون للاشادة الحضارة الاسلامية (*)

كتب مراسل شركة [سنترال نيوز] الخاص يقول :

في خلال بضع السنوات الاخيرة بدت في بلاد تركيا طلائع حركة جديدة تعرف بنهضة «بني طوران» أو [الطورانية الحديثة] وغرضها هدم المدنية الاسلامية واحياء العصبية التركية على انقاضها والجمع بين العناصر التركية التترية والشعوب المنتمية اليها ومنها الامة البلغارية . أما القائمون بهذه الحركة فهم قوم مشهورون بعدائهم للاسلام وتعصبهم عليه [illegible] ولذلك الكره محجة أن الاسلام يسعى لقتل العصبية القومية ويحول دون نشوء الدولة التركية ولذلك فهم يسعون لجعل الجنسية التركية مستقلة عن الاسلام كل الاستقلال

ومما يقولونه أيضا ان الاسلام لا محل له في المدنية ولا يمكن ان يعيش طويلا الا اذا أدخلت عليه تنقيحات عديدة تلائم المذاهب التركية القومية

ولهذه النهضة وجهتان احداهما أدبية والاخرى سياسية . فغاية الوجهة الاولى تمجيد الشعوب الطورانية ونشر تاريخها المجيد . وغاية الوجهة الثانية القضاء على العصبية العربية . فجنكيزخان هو في نظرهم نموذج الملوك ورجال السياسة فكل مملكة ينشؤونها يجب ان تقوم على المثال الذي رسمه . وأما العرب في نظرهم فهم عصبية على الاتراك . ولذلك يجب القضاء عليهم أو ادماجهم في العنصر التركي حتى ينسى العالم تاريخهم وتقاليدهم . أما لغتهم فلا بد من محوها واحلال اللغة التركية محلها في كل صقع وناد

(*) نشرت في العدد الذي صدر من الاهرام في يوم الخميس ١٦ ذي القعدة — ١٤ سبتمبر

والغريب ان كتاب الاتراك الغالين الذين يدعون بأنهم وطنيون بكل معنى الكلمة ينشرون اليوم المقالات الضافية ويحثون أبناء قومهم على الطواف بجميع أنحاء السلطنة للمناداة بهذه البدعة الجديدة ومن أغرب ما يروى من هذا القبيل ان أحد الاتراك طاف حديثا بسوريا وهو ينادي بهذه الضلالة

والحكومة الاتحادية تؤيد الآن جمعية « تي طوران » وتعززها بالاعانات المالية العديدة وتسمي تلك الاعانات « باعانات الملة التركية » وجميع كبار الاتحاديين أعضاء فيها وهم يبعدون عن الاسلام بعد الارض عن السماء. والمسلمون ينكرونهم لما يرون منهم من الاعتداء على حدود الشريعة الغراء

ولا يخفى ان الالمان هم الذين يؤيدون الاتحاديين في هذه السياسة الخرقاء فقد ثبت لهم الآن انهم لا يستطيعون اخضاع الاسلام لسياستهم ولا هم نجحوا في اثارة المسلمين الخاضعين لفرنسا وانكلترا على [illegible] الحكومتين . فانقلب زعمهم العطف على الاسلام الى [illegible] على ذلك بالجامعة الطورانية الجديدة [illegible] الالمانية التي [illegible] الجنرال [سمطس] في موشي والتي كان غرضها سحق الاسلام في المستعمرات الالمانية، ولذلك فألمانيا هي أكبر خطر على الاسلام مع انها تتظاهر بالغيرة على المسلمين

(*)

ليس من ينكر فضل الاسلام على العالم وما كان لمدنيته من الآثار الجيدة. أما الشعوب الطورانية فليس في التاريخ ما يدل على انها عملت عملا واحدا أفاد الانسانية بل بالعكس كانت جميع أعمالها تدميرا وتخريبا فالطورانيون لم يستفيدوا شيئا للمدنية بل كانوا حيثما حلوا أخربوا معالم المدنية ومحوا آثارها واستعبدوا الشعوب التي يقهرونها بأساليب هي في غاية الهمجية

أما ادعاء دعاة الجامعة الطورانية بأن الاسلام قد حال دون نشوء المدنية التركية فغير صحيح . ولا يخفى ان المدنية العثمانية هي خليط من آثار المدنيات العربية والفارسية والبزنطية والشعوب الطورانية التي لم تدخل في الاسلام لا مدنية لها على الاطلاق وانما هي استعارت شيئا من نماة الحضارة الصينية ولو ان السلطنة العثمانية قد

اشمئزت على المدنية التركية لكانت قد أصبحت في خبر كان منذ أجيال عديدة لان المدنية التركية كما قلنا هي تخريبية لا تعميرية والشيء الوحيد الذي يفوق به الطوراني غيره هو الظلم والجور واضطهاد جميع العناصر التي لا تسبح بحمد الطورانية وتحمدل . وسبب ذلك اعتقاده بأن جميع تلك العناصر وقفت حائلاً بينه وبين تركان آذربيجان والقوقاز .

هذه رسالة شركة سنترال نيوز وقد نشرت الصحف الانكليزية كلها هذه الرسالة وبسطت فيها الكلام بسطاً شافياً

الاسلام والطورانية الحديثة

ما يفعله الاتحاديون لمقاومة الاسلام (*)

نشرنا منذ بضعة أيام فصلاً عن الاسلام والطورانية الحديثة ضمناه ما نشرته الصحف الانكليزية نقلاً عن شركة « سنترال نيوز » الصحافية . وقد وقفنا الآن على مقالة ضافية في هذا الموضوع نشرتها مجلة الشرق الادنى فرأينا أن نورد خلاصتها لحضرات القراء قال الكاتب :

بدت طلائع الطورانية الحديثة في الاستانة في عام ١٩١٣ ثم أخذت تمتد وتزداد جلاء حتى أصبحت نهضة عامة في جميع انحاء السلطنة العثمانية . وخلاصة ما يعرف عن هذه النهضة أنها تركية محضة غرضها الاصلي الانفصال عن الاسلام ولها أغراض أخرى عديدة ينحصر أهمها في ما يأتي :

(١) جعل الجنسية التركية مستقلة عن الاسلام

(٢) ترقية الروح العسكري في الاتراك

(٣) انشاء علاقات تجارية وغيرها مع مسلمي اذربيجان وروسيا الاسيوية وروسيا الجنوبية

(*) نشرت في العدد الذي صدر من الاهرام في يوم السبت ١٨ ذي القعدة — ١٦ سبتمبر

(٤) تطهير اللغة التركية من كل ماهو عربي أو فارسي

(٥) محو الجنسية العربية وادماجها في الجنسيات الاخرى

ويرمي القائمون بهذه الحركة الى جعل التركي يعتقد أنه تركي قبل كل شيء ومسلم بعد ذلك . وتقوم بمساعدة هذه النهضة جمعية « اللغة التركية » التي تؤيدها الحكومة الاتحادية . بالاعانات المالية . ومن مبادئ هذه النهضة تربية الاجيال الحاضرة والمستقبلة على الروح الطوراني بانشاء مدارس طورانية بحتة . وبناء عليه يجب التوسع في تعليم التاريخ باللغة التركية وانشاء فرقة كشافة (سكوتس) من الاولاد الاتراك تحت إشراف أنور باشا . وقد أنشئت الآن هذه الفرقة وشرع الاولاد الذين فيها يتربون تربية عسكرية توطئة لدخولهم في الجيش . أما شارات الفرقة وراياتها فمأخوذة عن رموز ترجع الى ما قبل الاسلام . والاولاد الذين لهم أسماء عربية تستبدل أسماؤهم أسماء تركية بحتة

ولهذه النهضة [illegible] يترجمون كثيرا من المؤلفات العلمية والادبية الى اللغة التركية البسيطة وقد كان في نيتهم أن يترجموا القرآن أيضا ولكن علماء الاسلام قاوموا تلك الفكرة بكل عزم وحالوا دون تنفيذها

ويعزى نشوء هذه النهضة الى عدة أسباب نذكر منها السببين الآتيين وهما :

(١) اللغة

لايخفى أن أحرف اللغة التركية مأخوذة عن الاحرف العربية والاصطلاحات التركية تزداد كل يوم تعقدا وصعوبة في نظر الطبقة الساذجة

(٢) كتاب المسيو [ليون كاهون] عن تاريخ الترك والمغول من أقدم الازمنة الى سنة ١٤٠٥ للميلاد وقد توجت الاكاديمية الفرنسوية هذا الكتاب . واتفق أن ناظم بك سكرتير جمعية الاتحاد والترقي العام قرأ هذا الكتاب فوضع أساسات النهضة الطورانية التي نحن بصددها

ولا شك أن نهضة كهذه مما يهم العالم الاسلامي قاطبة ويهم أيضا انكلترا وفرنسا وروسيا وايطاليا اللواتي يحكمن على الملايين من المسلمين . والذي يشجع الاتحاديين على ترويج هذه النهضة اعتقادهم صحة النظرية التي ابتدعها [فيبري] وهي

أن الاسلام يناقض فكرة الجنسية . فالاتحاديون يقولون ان الاسلام بالاتحاد مع العوامل العربية والفارسية والرومية والبيزنطية قد جعل الاتراك « مسلمين ليفانتيين » وحال دون نشوء حضارتهم . على أن هذه الدعوى هي عكس الحقيقة تماما فان الاتراك الذين جاءوا أصلا من حدود الصين وانتشروا في مجاهل آسيا حتى ضفاف [الاوكسوس] لم يكن لهم دين معروف أو حضارة راقية لانهم كانوا قبائل رحل يؤجرون سيوفهم لكل من يطلب معونتهم . ولم يحاول أحد من قواد الاتراك أن يخضع جميع القبائل التركية. نعم ان [جنكيزخان] كان يحلم بنشر سلطته عليها ولكنه لم يفعل . وقد اشتهر بأنه كان يقتبس عن الصين والعجم والعربية وبيزنطة وجرمانيا كل ما كان يروقه فيها من آثار الحضارة . ولا شك أن أهم ما اقتبسه هو الاسلام فالاسلام لم يحل دون نشوء الحضارة التركية اذ لم يكن للاتراك حضارة خاصة بهم وكل ما لدى الاتراك من حضارة هو فضل الاسلام . ولما كان التركي مشهورا بروح الخضوع العسكري [illegible] في قبضة الاسلام

ان العنصر الطوراني لا يشعر بشيء من قوة لا يستطيع يروما تاريخه سوى تاريخ وتدمير. فقبائل [يونغ] الحرب فتحت [illegible] البونانية. وقبائل [الهون] اجتاحت رومية الشرقية ورومية الغربية اجتياحا همجيا وقبائل [آفار] سحقت الشعوب السلافية في مهدها، و[هولاكو] ردم أقنية بابل وجعل أخصب بقاع الدنيا بلادا قاحلة حتى الآن، والعثمانيون أبادوا الحضارة البيزنطية التي ربوا عليها ولم يكسبوا منها شيئا من العلم والمعرفة. هذه هي القبائل الطورانية التي تباهي « باتيلا » الذي كان نقمة الله على العالم، وجنكيزخان الذي سمى نفسه « غضب الله تعالى » ولما شرع الالمان يحاربون البلجيك وغيرها من دول أوروبا رأوا أن يقلدوا أساليب جنكيز وأتيلا وتيمورلنك

•••

ومما يدل على ان العقل التركي ليس عقلا مستنبطا انه لم يأت بمستحدث في الاسلام. بل هو اتخذ الاسلام ودان به كما هو. ولو كان مخلوقا مفكرا لرأيناه بعد اعتناقه الاسلامية يزيد عليه أو ينقص منه ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك لعجز مخيلته عن الاختراع

امبراطورية تركية

ومما تسعى اليه نهضة الطورانية الحديثة انشاء أمبراطورية حربية واسعة الارجاء تضم تحت الويتها جميع قبائل التتر والمغول الخاضعة لروسيا أو لأية دولة اخرى. «أما الجنسية العربية فيجب ابادتها وادماجها في الجنسية التركية المحضة لأنها خطر كبير على الجنسية التركية . ومن أمثلة الاتراك من هذا القبيل قولهم : واذا لم تعامل العرب كما نريد عاملوها بما تستحق » لذلك تراهم يسعون « لتتريك » العناصر العربية بحسب الاساليب البروسية

ومما يستحق الذكر أن جلال نوري بك الكاتب التركي الشهير قال في كتاب حديث الله ما يأتي : « ان بلاد العرب ولا سيما اليمن والعراق يجب تحويلها الى مستعمرات تركية لنشر اللغة التركية التي يجب أن تكون لغة الدين. ومما لا مندوحة لنا عنه للدفاع عن كياننا أن نحول جميع الاقطار العربية الى اقطار تركية لان الجيل العربي الحديث قد [illegible] يشعر الآن [illegible] ويكون [illegible] عظيمة فيجب أن نحتاط للامر من الآن

وكتب أحمد شريف بك مقالة في [طنين] جاء فيها ما يأتي : «لايزال العرب يلهجون بلغتهم وهم يجهلون اللغة التركية جهلا تاما كأنهم ليسوا تحت حكم الاتراك . فمن واجبات [الباب العالي] أن يجعلهم ينسون لغتهم ويجبرهم على تعلم لغة الامة التي تحكمهم . فاذا أهمل الباب العالي هذا الواجب كان كمن يحفر قبره بيديه لأن العرب لن ينسوا لغتهم وتاريخهم وعاداتهم . بل سيسعون لاسترجاع مجد مملكتهم واعادة ترميمها على انقاض دولة الاتراك »

وجاء في تنذة وزعها الاتراك في القوقاز « ان العرب هم اجنبية علينا مع أن حصان التركي خير من أي نبي ظهر في العالم »

هذا وقد علقت مجلة الشرق الأدنى على هذه المقالة بتوجيه نظر العالم الاسلامي الى الخطر الذي يتهددهم ان هم تباطأوا عن الاحتياط لدرء ذلك الخطر

منشور شريف مكة واميرها

نشرت الجرائد المصرية اليومية في آخر الشهر الماضي منشور شريف مكة وأميرها الذي وجهه الى العالم الاسلامي ، وانه لمنشور كتب بمداد الحكمة واصالة الرأي وشرف الغاية . وملخصه ان الشرفاء (أمراء مكة المكرمة) كانوا أول من اعترف بسلطة سلاطين آل عثمان الكرام لما كانت أحكام دولتهم قائمة على أساس الشرع الاسلامي حبا في الوحدة الاسلامية وكراهة الشقاق وتفرق الكلمة ، وان صاحب المنشور نفسه قد بالغ في الاستمساك بعروة الدولة حتى انه حارب بجنده من العرب على العرب وقاتلهم لأجل الدولة

ثم انتقل من ذلك الى سيرة فئة الاتحاديين الباغية فبين انها قد جنت على الدين والدولة والامة فانحرفت عن صراط الشريعة وأبطلت بعض أركان الاسلام وغيرت أحكام القرآن ، وحجرت على السلطان حتى منعته من التصرف بشؤون خاصته وقصره ، وبكثرة الاعتداء على الحقوق والأرواح وإفساد النعمة ، وخصت العرب بالاضطهاد فعلقت في الشام كثيراً من أهل الرأي والفضل ، واستحلت مصادرة الاموال واخراج النساء المخدرات والاطفال من ديارهم وأموالهم ونفيهم الى بلاد الاناضول من غير ذنب وبغير قيم شرعي . ثم ذكر تحكيمهم بالدولة في هذه الحرب وتعريضهم اياها للخطر وماجنوه على البلاد بذلك ، وذكر ما حل بالحجاز من جراء ذلك وان الضيق قد بلغ بأهل الدرجة الوسطى الى بيع أثاثهم ثم بيع خشب بيوتهم حتى الابواب والسقف

ثم بين ان بلاد الحجاز اضطرت بسبب تلك الجرائم والمفاسد العامة التي اجترحها الاتحاديون الى اعلان استقلالها بنفسها دونهم حرصا على دينها وعلى جنسيتها العربية لان الاتحاديين يتعمدون افساد هذا الدين ومحو هذه الامة العربية من لوح الوجود . وذكر ان الحامية التي وضعها الاتحاديون بمكة أرادت الانتقام من أهل البلاد فألقت قذائف مدافعها من حصن جياد على الحرم الشريف فأصابت بيت الله عز وجل وقتلت كثيرا من الطائفين والمصلين فيه

قال وحسبنا برهانًا على ما تكنه صدورهم نحو الدين والعرب ضربهم البيت العتيق الذي أضافته العزة الأحدية لذاتها السبحانية في قوله تعالى (وطهر بيتي للطائفين) وهي قبلة المسلمين وكعبة الموحدين بقنبلتين من قنابل مدافعهم التي بحصن جياد أثناء قيام البلاد بالمطالبة بالاستقلال وقعت إحداهما فوق الحجر الأسود بنحو ذراع ونصف والثانية تبعد عنه بمقدار ثلاثة أذرع فنشبت النار بأستار البيت حتى هرع الألوف من المسلمين لإطفائها وفيه بالضجيج والنحيب واضطرهم الحال إلى فتح باب البيت والصعود إلى سطحه ليتمكن من إطفاء اللهيب، وما انتهى أمرهم بهذا حتى عززوا الاثنتين بثالثة في مقام إبراهيم، وهذا عدا ما وقع منها في بقية المسجد الذي اتخذوه هدفهم الوحيد في غالب مقذوفاتهم بالقنابل والرصاص، وما زالوا يقذفون الثلاثة والأربعة في نفس المسجد كل يوم حتى تعذر على العباد القرب من البيت، وفي هذا من الاستخفاف والازدراء بالبيت وتعظيمه وحرمته ما نترك القول والحكم فيه أيضا لعموم المسلمين في [illegible]

وهذا المنشور [illegible] ما نشر [illegible] سيرة هذه الجمعية الباغية في الدولة والأمة، ومن اطلع عليه من قراء المنار يعجب إذ يرى أكثر مسائله في المحاورة التي نشرناها في الجزء الماضي، وسبب ذلك أنها حقائق يعرفها جميع خواص العثمانيين وكثير من عوامهم فكيف تخفى على أمير مكة المكرمة على مكانته في الذروة العليا من الأمة والدولة، وأهل بيته منهم الأعضاء في مجلس المبعوثين كنجله الشريف عبد الله وفي مجلس الأعيان كأخيه الشريف ناصر

وقد أعجب أهل الفضل بنزاهة المنشور ومحافظته على كرامة الدولة العثمانية وسلاطينها العظام وكرامة الشعب التركي أيضا وحصره السيئات التي يشكو منها جميع العثمانيين وكل غيور على الدولة في سيرة الاتحاديين فيها

ومن حكم لزوم الإنصاف في سيرة الاتحاديين يستدل من مواقعه المنشور لكثير من المطاعن التي قيلت فيهم على أن أخبارها قد بلغت حد التواتر بكثرة مصادرها فالشريف الأكبر لم يستمد ما ذكره في منشوره من الجرائد المصرية ولا الأوربية ولعله لم يطلع على شيء منها قبل كتابته، بل يستمد بيانه من الأقوال

والاعمال الرسمية . مثال ذلك ما ذكره من الشواهد على جنايتهم على الدين وجرأتهم على هدم أركانه والعبث بأحكامه . فانه ذكر منه أمر سلطتهم العسكرية بالزام جنودهم المقيمة في الحجاز وغيره من الامصار الفطر في رمضان وأمرهم لقاضي مكة بعدم الاعتداد بشهادة المسلمين بعضهم على بعض الا ما كتب منها في محكمة . وأما أخبار فتكهم بأهل الفضل والنبل من مسلمي سورية تقتيلا وتصليبا ومصادرة الاموال ونفي النساء والاطفال فلا شك في أخذه إياه من الجرائد السورية الرسمية وغير الرسمية وان لم يصرح بذلك . ودالي على ذلك ان أول كتاب جاءني من وكيل المنار في الحجاز قد نقل فيه عن تلك الجرائد أسماء من قتلوا وصلبوا في الشام من كبراء العرب ومنهم السيد الزهراوي وشفيق بك المؤيد وغيرهما

وقد تذكرت جيدا أنه لما ذكرت الجرائد المصرية أول نبأ عن صلب فضلاء العرب ببيروت يوم الاحد عشر الذين منهم النابغة محمد المحمصاني وعبد الكريم قاسم الخليل أرسل لي ... من ... ذكر فيها رأيه واستفظاعه الخبر وشكه في صحته ... ليعرف رأيي فيه وقال انه لا يثق به الا اذا كنت مصدقا له . فأرسلت اليه برقية قلت فيها اني لا أثق بشيء من ذلك . ثم جاءت جرائد أوربة فجرائد أمريكة تثبت الخبر ، وفي جرائد أمريكة العربية السورية نقل له عن جرائد سورية . ثم انني كنت مارا مرة بنظارة الحربية فرأيت فيها رجلا قد أسره الانكليز من سيناء فسألته عن بلده وعن أخبار سورية فقال انه من القدس ، وأخبرني بخبر الذين صلبوا في بيروت ، فقلت هل تعرفهم قال لا بل أعرف بعضهم بالاسم ، قلت ممن علمت بخبر شنقهم ؟ قال من جريدة القدس الرسمية . لاجل هذا قلت في المحاورة التي نشرت في الجزء الثالث ان خبر صلب من صلب في سورية قد ثبت عندي بالتواتر

لقيت أول من أمس صديقا لي من رجال القانون أعرف منه استقلال الرأي فتكلمنا في هذا الموضوع فقال انه يجب ان يجعل نفسه كالقاضي في هذه القضية فلا يحكم فيها . قلت بل يجب ان تجعل نفسك بمكان المؤرخ المنصف الذي يمحص الاخبار ثم يجزم بالنفي أو الاثبات ، فأنا لم أكن خصما للاتحاديين بل كنت صديقا

لهم قبل الدستور وبعده ، وكنت أول من دافع عنهم لما حملت عليهم جرائد الهند الاسلامية ورمتهم بالكفر والالحاد ، واسقاط خليفة المسلمين السلطان عبد الحميد لاجل ابطال الحكم الاسلامي ، ولما شاع أمر عبثهم بالدين وتعصبهم على العرب وظلمهم ثبت في الحكم عليهم وذهبت الى الآستانة فأقمت فيها سنة كاملة معهم ساعيا في خدمة الاسلام عامة وفي التأليف بين الترك والعرب وعلمت بالاختبار الطويل أن كل ما قيل فيهم دون الواقع كما بينته في المنار

وجملة القول ان منشور الشريف الذي كان قبل استقلاله في الحجاز أعظم الامراء العثمانيين هو أعظم الحجج على ملاحدة الاتحاديين ، كما أنه تأييد من سيد العرب لطلاب الاصلاح من العرب ، لانهم بنوا سعيهم على أساس المحافظة على الدولة العثمانية ، ومن قواعدهم ان لا يكونوا سببا من أسباب ضعف الدولة ولا تمزيق وحدتها . وقد انسلخ من الدولة عدة ممالك وولايات بسوء سياسة الاتحاديين : البوسنة والهرسك وطرابلس الغرب وبنغازي ومكدونيا وكريت وجزائر الارخبيل الرومي ، — دع ولاية البصرة والولايات الأرمنية والعربية التي ذهبت في هذه الحرب — ولم يكن العرب سببا في زوال شيء منها . فهذا أكبر حججنا على هؤلاء المخربين

باب المراسلة والمناظرة

حال المسلمين الاجتماعية

(وفريضة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر)

للفاضل الغيور — م . ن — صاحب الرسالة التي نشرت (في ج ١٠ م ١٨)

حضرة حكيم الاسلام السيد الامام الاستاذ السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الاسلامية :

السلام عليكم ورحمة الله . وبعد فلست صحفيا ولا من المشتغلين بالتحرير ولا يسع وقت فراغي كتابة المقالات ، وتنسيق العبارات ، فان في أعمالي اليومية لشغلا شاغلا . فان اكتب اليكم فانما اكتب مدفوعا بعامل القيام بفريضة « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر » التي عفا أثرها من بين المسلمين . اذ لولا صوت المنار الحي المرتفع الذي يدوي في الآفاق فيخترق أغشية الآذان ، ويرفق حجب القلوب ويفتح الاذهان ، ويوقظ النائم ، وينبه الغافل — لولا ذلك الصوت المنعش للنفوس المحرك لها ، لصح أن يقال ، ولا عتب في المقال : ان الامة الاسلامية شبح بلا روح

« كتبت رسائلي الماضية في موضوع الدعوة والارشاد ولم يكن لي غرض سوى العمل بهذه الفريضة واقامة الحجة امام الله تعالى على المسلمين الذين تهاونوا فيه وفي كل عمل اسلامي . وانه وان لم يكن لدي كبير أمل في أن يقدم المسلمون في الحال ما يحتاج اليه [illegible] في النجاح التدريجي الذي يؤدي الى النجاح التام ، ولكن [illegible] أن يكون نصيب هذه الدعوة الصمت والجمود اللذان يدلان على شدة ما تعاني الامة الاسلامية من أدوائها الاجتماعية .

لذلك حدثتني نفسي بعد طول الانتظار بأن أبعث اليكم بهذه الرسالة الثانية زيادة في التذكير ، وتأكيدا للانذار والتحذير ، ولأبين ان المسلمين غير معذورين في البقاء في هذه الهوّة التعسة ، وان وسائل النجاة والحياة في أيديهم والامر كله متعلق بمشيئتهم . وهذه هي الرسالة :

دعوت المسلمين في رسائلي الماضية لتنفيذ مشروع الدعوة والارشاد وما كنت لأدعوهم الا الى حق وأوضحت لهم خطورة الحالة التي نحن فيها وما كان لي أن أكذب . وأقمت لهم الدليل على أن المشروع كافل لاصلاح الحال ، وما كنت الا صادقا . وانتظرت ماذا يكون من أمر هؤلاء وأطلت الانتظار فألفيتهم صموا عن النداء ، واختاروا البقاء في الشقاء ، وما كنت مكرها لهم على ما تمقت عنه نفوسهم ولا اكراه في الحق

انه ليحزنني أن تخيب دعوتي وليس ذلك لانها صادرة مني فما هي الاصدى لاصوات صاحب المشروع ومن نصره فيه من قبلي ، وانما حزني وأسفي لحرمان الامة الاسلامية من الخير العظيم الذي كان ينتظرها ان هي أجابتها ولكن ماحيلتي وقد دعوت ونصحت وما فرطت ، والامة أعرضت وجمدت واستكبرت . وقد فشلت دعوة الكثيرين من أهل الغيرة والاخلاص من قبل فلم ينقص إعراض الناس عنها من قدر الحق ولا من قيمة مادعوا اليه شيئا ، اذ الحق حي بذاته لا يضره أن يكفر الناس به كما لا يرفعه أن يتفقوا فيه . وان في ضياع صوت أستاذنا العظيم في فضاء غفلة هذه الامة الجاهلة لعبرة وذكرى المنشائين المتسرعين

انه ليقع الانسان في الحيرة ويأخذه العجب لخيبة دعوة الحق بين المتعلمين وفيها خيرهم وفلاحهم ونجاح دعوة الشر فيهم وفي اجابتها هلاكهم وشقاؤهم . فما أشد ظلمهم لاهل الحق الذين يغارون على الامة ويريدون لها الرشاد ، وظلمهم لانفسهم باتباعهم أهل الضلال الذين يبغون في الارض الفساد . ولقد ود المصلحون لو أن الامة عرفتهم فآزرتهم ونصرتهم وسمعت قولهم وأطاعت أمرهم فنهضت بهم . لا يسأل هؤلاء الامة أجرا على عملهم فالحق والعمل الصالح أعلا من أن يقوما بشيء من حطام الدنيا . وان أخذوا أجرا في الظاهر فليس هو في الحقيقة بأجر وما هو من قبيل ثمن لشيء مباع ولكن عمال يسدون به عوزهم ويستعينون به على عملهم الذي يقيمون به خير الامة وسعادتها . انما أجرهم على الذي فطرهم وهو وحده الذي يقدر عملهم ويكافئهم عليه في دار غير هذه الدار . أما أهل الباطل والضلال فهم ينفثون السم في النفوس والارواح بما ينشرون من رأي ، ويدعون اليه من عمل ؛ ويسلبون أموال الامة أجرا على هذه الضلالات ، انهم لا يرجون عند الله ثوابا ولا بعد هذه الحياة حياة . فهم لذلك يحتالون على جمع المال بأي وسيلة تمكنهم منه ، فهو غرضهم الذي اليه ينتهي الامل ، والسبب الوحيد الذي يحركهم للعمل . هؤلاء هم رسل الشهوات وأعوان الهوى وأولياء الشيطان ، وأولئك هم دعاة الفضيلة وناصروا الحق وحزب الرحمن .

فياليت شعري أي الفريقين خير مقاما وأهدى سبيلا . ومن منهما أولى بالاتباع وأقوم عملا وأحسن قيلا ؟ فياخاف خير أمة أخرجت للناس أتستبدلون

الذي هو أدنى بالذي هو خير؟ ويندفعون الى الاوهام والضلالات مختارين ويتقلبون الى الشر؟

ودّ كثير من الناس لو يعرفون سبب هذا الجفاء بين المسلمين وأهل الحق والصلاح وهم المحبون الصادقون، وعلة هذه المودة بينهم وبين أهل الباطل والفساد وهم الاعداء الظاهرون. فانه لا بد لذلك من سبب ومن عرف السبب زال العجب.

ليس العيب الذي تقدم ذكره هو الوحيد في المسلمين. والا فلماذا يعادي هؤلاء المسلمون أنفسهم ويعطفون على أعدائهم؟ ولم يعرضون عن مصالحهم ويسارعون الى هلاكهم؟ وما الذي حسّن اليهم الباطل وبغضهم في الحق؟ وأي شيء سوّغ اليهم ارتكاب السيئات وترك الحسنات؟ ولاي سبب يصالحون الشيطان ويغضبون الرحمن؟ وما السبب الذي هبط بهذه النفس الانسانية الى دركة الحيوانية؟

انه يوشك أن تكون جميع تصرفات المسلمين مخالفة للعقل والنقل وأحوالهم مرذولة غريبة الشكل [illegible] من أعراض المرض العام الذي سكن في جسم [illegible] الامة [illegible] على إبصارها، فبحث ما ليس بالقبيح ورأت حسنا ما ليس بحسن. فمرض الامة هو سبب كل ما تنكر من ميولها وحركاتها وسكناتها. فاذا عرف المرض عرف السبب

المرض أو السبب هو كما قال السيد الامام هو ضعف استعداد الامة وحرمانها من الزعيم. وهو قول حق لا ريب فيه. اذ لو وجد الاستعداد والزعيم معا لنهضت الامة من كبوتها وحييت حياتها الطيبة وفارقها الشقاء، وزال عنها ما نزل بها من البلاء، ولكن الى متى نسكت على هذا الضعف فينا ولا نباشر علاج أنفسنا؟ الآن وقد عرف كنه المرض الذي أصابنا وسبب الضعف الذي أنهك قوانا فمن السهل معرفة علاج هذه الحالة أيضا. إنه وقد أمكن تشخيص الداء فما علينا الا أن نصف الدواء.

لا علاج لضعف استعداد الامة الا في أمر واحد وهو العلاج القديم الذي ثبت صلاحه وتأكد نجاحه واتبع في كل زمان وفي كل مكان، وسار على سننه الانبياء عليهم الصلاة والسلام في تبليغ رسالات ربهم عز وجل، وكذلك الصالحون من بعدهم. ذلك العلاج هو اقامة فريضة « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر »

ان الناس أفلحوا وسعدوا ما عملوا بهذه الفريضة وخابوا وشقوا ما أهملوها . فكما أن داءنا في تركها كذلك علاجنا في اقامتها . وقد جعل الله تعالى العمل بهذه الفريضة شرطا ضروريا لصحة الايمان وهي أعظم ما فرض العليم الحكيم على أتباع أنبيائه عليهم السلام ، فكانت ولا تزال اقامتها عنوانا على هداية الناس وسعادتهم واهمالها دليلا على ضلالهم وخسرانهم واستحقاقهم لعنته « لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم » (لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون)

تركت الامة الاسلامية العمل بفريضة « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر » من عدة أجيال ففقدت بذلك قوتها الحقيقية التي كانت تحمي بها الاموال والاعراض والعقول والقلوب والاخلاق والدين من فتك الشهوات وعبث الشياطين . وماذا يفعل الاعزل من [illegible] أفراد المسلمين بعد ذلك — وقد خفت صوت الامة [illegible] الشهوات والهوى والشيطان ، كالعقد الذي تبعثرت حباته أو كذرات الرمال التي تتجاذبها الرياح والاهواء المختلفة فضل الناس في الفهم والرأي والعمل ولا منكر ولا مرشد ، وانحلت الرابطة وتفرقت الكلمة ، وتناكرت العقول والقلوب ، وضاعت الفضيلة ، وحلت محلها الرذيلة ، واستبدل الجهل بالعلم ، وأوشك أن يكون الدين المعمول به عند الجماهير الآن مجموعة خرافات وأوهام وضلالات ، وبدع ومنكرات وتقاليد وعادات ، وبالجملة ان الحال قد تحول الى ما يرى كل انسان ، وليس الخبر كالعيان . تلك عاقبة الذين نسوا حظا مما ذكروا به باهمالهم هذه الفريضة فتولدت بذلك في الامة الامراض والعلل ، التي أضعفت استعدادها للفهم والعمل ، فضل فيها صوت المصلح ، وخابت دعوة الحق ، وما ربك بظلام للعبيد

وان تعجب فعجب أن يعتذر القادرون على الاصلاح عن القيام بذلك الواجب العظيم باعراض الامة عن الحق وتنكبها وانصراف عقول أفرادها وقلوبهم الى الباطل والشر ، ونسوا ان الامة ما سقطت في هذه الهوة السحيقة ، الا بسبب اهمال هذه

الفريضة ، كما غفلوا عن كونها أحوج الى الارشاد في هذه الحالة منها في سواها ؛

ان ما وقع من الامة من التفريط في جنب الله لا ينبغي أن يسأل عنه سواها وان عليها ان تتحمل وحدها أثقاله وتتجرع مرارته (ولا تزر وازرة وزر أخرى) . فلا يصح ان يؤدي تفريط الامة في واجبها الى تفريط المؤمن في واجب « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر » الذي فرضه الله عليه ، ولا يسقط عنه الا بأدائه سواء استجاب له الناس أم لم يستجيبوا . ما كان ضعف استعداد الامة للحياة أو بعبارة ثانية ضعف قوتها الحيوية الذي هو نتيجة طبيعية لما كسبت أيديها كما تقدم ليغير من موقف المصلح أمامها ، فهو مطالب على الدوام بأن يصدع بالحق وان كان غريبا عن عقول وقلوب أكثر سامعيه، وان يقرر الحقيقة وان لم يفقهها الا نفر قليل منهم، وله عمله مع ذلك حجة على الطائع والعاصي وما الاخير الا لقلة استعداده بمعذور (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون * وقالوا [illegible] غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون * ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء * ما على الرسول الا البلاغ)

وقد دعا كثير من أنبياء [illegible] قومهم الى [illegible] فكذبوهم وقتلوهم . وما كذبوهم وما قتلوهم الا لأنهم لم يعقلوا دعوتهم [illegible] ، وكذلك كان شأن الناس مع كثير من المصلحين . فما من دعوة الى حق الا وصادفت في أول أمرها إعراضا عظيما ومقاومة كبيرة ممن جاءتهم ، حتى قيل انه لا أمل في قبولها . ومع ذلك لم يكن ذلك الاعراض وذلك التكذيب وتلك الشدائد لتؤثر في همة أولئك الهداة وعزمهم ، أو ترجعهم عن قصدهم . فمن ذا الذي يجسر ان يقول ان عملهم كان لغوا لان الناس لم يكونوا مستعدين له ؟ كلا بل هو كل الحق والصواب وهو ما أمر الله به وأوجبه عليهم وهو سبب كل ما وجد وما يوجد من خير واصلاح في العالمين وعلة الحركة والحياة في الناس أجمعين .

ان كل دعوة لحق تصيب الغرض سواء أجيبت في الحال أم لم تجب وسواء أدرك الداعي نجاح دعوته في حياته ، أم حصل النجاح بعد وفاته، فهي محدثة أثرها على كل حال . فمثل الكلم الطيب والعمل الصالح وتأثيرهما في النفوس كمثل التفاعلات الكيماوية سواء بسواء ، فان التفاعل الكيماوي حاصل وان كان أحيانا

يسير يبطء تبعا لحالة الوسط وطبيعتها وقوة تأثيرها بعضها في البعض الآخر ، وكثيرا ما تجري الحوادث الكونية بحيث لا تدركها الابصار ولا تتناولها الحواس، فاذا مضت الايام أو الشهور أو السنون أو القرون فوجئ الغافلون بالنتائج الصغيرة أو الكبيرة التي تأتت عنها ، وبالجملة انه كما ان لكل حركة أثرا في مجموع ما يحيط بها من الاشياء كذلك لكل كلمة طيبة أو كلمة خبيثة فعلها في ردع الناس عن الشر أو اغرائهم به . أفليس من الوجوب علينا الاكثار من الكلم الطيب دعوة الخير ومقاومة لدعوة الشر التي كثرت واستفحل أمرها ؟

ان الباطل عدو الحق كما أن الحق عدو الباطل . وهذه العداوة قديمة من عهد ان عرف حق وباطل وستبقى مستمرة الى ما شاء الله تعالى . فعلينا ان نفهم هذه الحقيقة ولا يطمع أحد في التوفيق بين عدوين هما أكبر خصمين في الوجود. انه لا ضرر على الحق من هذه العداوة والخصومة التي لا مفر منها ، فالباطل أضعف من ان يقف امام حق [illegible] كان للباطل ان يوجد مع حق في ساحة فأين [illegible] لا يوجد [illegible] وان الباطل يتضاءل أمام أشعة الحق كلما اقترب منه كما تتضاءل الظلمة امام الضوء . ان الحق ثابت بنفسه والباطل ساقط بذاته أو بعبارة أخرى ان حياة الحق مستقلة باستقلال الحق ولا حياة للباطل الا باستناده الى الحق فهو أشبه بالخيال منه بالحقيقة ، انه لا يغلب الباطل الا الحق فالباطل قوي ما غاب عنه الحق وكما انه لا سلطان لحق على حق كذلك لا نفوذ لباطل على باطل وكما ان الباطل يذهب بقدوم الحق فانه لا يترك مكانه لباطل مثله . فيلزم مواجهة الباطل بالحق على الدوام فموت الباطل في قرب الحق منه وحياة الحق في خفاء الباطل. ان الحق حق ولا يمكن ان يكون الا حقا، والباطل باطل ولا سبيل الى جعله حقا ، فلا بد من الخلاف والتصادم بينهما . واذا كانت مهمة الحق ازهاق الباطل ودأب الباطل الفرار من امام الحق والانتشار في الساحات التي لا سلطان له فيها ، وجب ان يتعقب الحق الباطل أينما حل وسار ، ليتم له الانتصار .

لا عيب في الحق وانما العيب فيمن يدعون انهم أهله اذا قصروا في القيام به ونصره ، والا فلم يخشى أهل الحق أهل الباطل وهؤلاء ضعفاء بضعف ما لديهم

من باطل . وأولئك أقوياء بما لديهم من الحق ؛ لا يجوز لأهل الحق ان يدعوا هؤلاء المبطلين آمنين مغرورين بزخرف الباطل مفتونين بظواهره الكاذبة حتى لا يكون ذلك قرارا منهم لباطلهم ، بل ان الواجب اقلاق الحق وقذفهم بالحق دائما بدون رأفة أينما ذهبوا أو حلوا أو وجدوا ، في غدوهم ورواحهم ، في نومهم ويقظتهم ، في أحلامهم وراحتهم ، الى ان يذهب نور الحق بظلمة الباطل ، ويعرفوا انهم لم يكونوا الا واهمين . ان نور الحق متى ظهر فالناس لا يستطيعون نكرانه وان استطاعوا انكاره فلا يقدرون على المجاهرة به . وان الاصرار على الباطل بعد أن يفضحه الحق قليل في الناس ، وانما يصر الا كثرون منهم على ما يصرون جهلا منهم وتوهما أنهم على حق ، لاعذر في السكوت على الباطل فيجب أن لا يصد داعيا الى الحق صاد مهما عظمت المهمة وبعدت الشقة ، واذا بعد الناس عن الحق أو قل عدد الراقبين فيه منهم أو فقدوا في بعض الازمنة أو الامكنة فان ذلك لا يجعل الحق غير حق ، ولا ينبغي ان يكون [illegible] ان نرضى به على أي حال .

ان الحالة [illegible] ان يقال لهم في وجوههم بصوت جهوري [illegible] تجب المبادرة الى انقاذ أنفسكم منها ، ولا يمكن أن يقال لهم غير ذلك . ينبغي أن يقال للمسلمين : « يامعشر النساء ويامعشر الرجال أنتم على باطل وضلال ، وأن تقاليدكم وعاداتكم التي تدينون بها وتحرصون غاية الحرص عليها انما هي من مخترعاتكم ومخترعات آبائكم ، وأن العقل ينكرها وشرع الله يبرأ منها . وهذه القبور وما حوت من عظام والاشجار والاحجار لا يمكن أن تتخذ وسيلة الى العليم العلام ، ولا سيما لقضاء الحاجات أو شفاء الاسقام ، وهذه الافكار الفلسفية والنزعات المادية التي اتيتم فيها سفهاء الافرنج بدعوى المدنية لم تكن الا نزغات شياطين . وهذا الفسق والفجور والعصيان من عمل الشيطان ولا يتفق مع رضاء الرحمن . وأن خطتكم التي تسيرون عليها لخطة عوجاء وهي سبب ما نزل بكم من البلاء . فارجعوا الى أصل الدين تكونوا من المهتدين » يجب أن يقال ذلك وماشاكله للمسلمين وأن يبين لهم ما يقال تقريبا للعقول والافهام . فمن قام بذلك فقد قام بواجبه وليس عليه أن يبحث في مبلغ تأثير

كلامه في نفوسهم فليس عليه هداهم وانما الهدى هدى الله .

قد يفقه المسلمون القول ويدركون الغرض المقصود منه في الجملة فيهمون أن يفتحوا عيونهم للنظر ويتحركوا للعمل ولكن قد تغلبهم الشهوات فيعرضون ، ويوسوس لهم الشيطان فينكصون ، وعن اتباع الحق يعدلون . انهم عصوا لضعف استعدادهم ولكن ما حيلة الداعي وأمر استعدادهم بأيديهم ان شاؤا أصلحوه وان شاؤا زادوه ضعفا ؟ وما ذنبه والمرء لا ينفعه زجر زاجر ما لم يكن له من نفسه وازع (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)

ان الناس مسؤولون عن ضعف استعدادهم كما أنهم مسؤلون عن ضياع كلمة الحق بينهم . وان ضعف استعداد الامة ناشئ عما ارتكبته من السيئات ، فيكفي منها الاقلاع عنها وعمل الصالحات ليبدلها الله تعالى من فضله حسنات . ما عذر هؤلاء المسلمين في هذا الانحطاط الذي أخلدوا إليه وفيهم كتاب الله تعالى ، وأمامهم سنة رسوله (ص) وبين أيديهم آثار أهل الحق ورجال الاصلاح ، وتحت أنظارهم الامثال الحية على رقية الحال [illegible] من المجهودات العظيمة التي تقوم بها الامم المرتقية القوية ؟ ان المريض وان اشتد به المرض قد يعود الى الشفاء سبيلا باتباع أوامر الطبيب والعمل بارشاده . فلماذا لا تطلب هذه الامة شفاءها في القرآن الذي ما فرط الله فيه من شيء ، فيه شفاء للناس ؟ ولم لا تستوضح ما أشكل عليها من سنة الرسول (ص) والمأثور عن السلف الصالح ؟ كل ذلك ميسور لها سهل عليها . بل ما الذي يمنعها من الاصغاء لنداء أهل الحق والاصلاح الذين يمن الله تعالى بهم على المسلمين من وقت الى آخر رحمة بهم اذا اشتدت الحاجة اليهم وزاد الكرب وضاق القلب وبلغت الروح التراقي ؟ لقد رزق الله الامة الاسلامية من هؤلاء في أقل من نصف قرن ثلاثة أقطاب كل واحد منهم يكفي للنهوض بالامة واسعادها لو وجدوا منها سميعا وناصرا ومطيعا . انه قضى منهم اثنان وها هو ذا الثالث يقرع بالحجة ويصدع بالحق تسعة عشر عاما فهل وزن قوله بميزانه وعرف له حتى الآن قدره ؟ ان صوت المنار لهو حجة الله الناطقة في الناس في هذا العصر وأنه وان ضاع حتى الآن بين أهل هذا الزمان فانه لا يضيع عند الله ولا في مستقبل الازمان

افلا ينظر المسلمون الى حالتهم ويرجعون الى أنفسهم ليجدوا أنهم ضلوا ضلالا بعيدا ؟ وهل شيء أدل على ضعف دينهم واختلال قوتهم من قيام قسيس في هذين اليومين يطعن في السنة وأشهر رواتها وحملتها وينشر شبهته في مجلة سيارة ويدعو الى الرد عليها ثلثمائة مليون من المسلمين ؟

فأي برهان على فقر الامة من الرجال أقوى وأظهر من سكوت علمائها عن رد مزاعمه وابطال شبهاته سوى رجل الاصلاح الاوحد ناصر الاسلام السيد الامام ؟ ان القسيس ما كان ليتحدى برسالته صاحب المنار فهو يعرف من هو، وكان يتمنى طبعا لو لم يرد عليه بحرف واحد. فهل الامة كلها صاحب المنار؟ وهل عدم المسلمون وهم يعدون بمئات الملايين من يستطيع ابطال الشبهة ورد الفرية سواه؟ قد يكون ذلك صحيحا وياللاسف وقد لا يكون صحيحا . ولكن الذي يلزم الاعتراف به هو ان الامة سكتت لمن ادعى انه هدم الاصل الثاني من اصول دينها وهو السنة النبوية وقد وقف أمامها يدعوا [illegible] وهو فرد ضعيف الخروج جهرا الى الميدان [illegible] من تصدروا لارشاد الامة وسموا أنفسهم رجال الدين [illegible] وهل يعذر العاقلون يتظاهر أهل العمائم والفرجيات من علماء هذا الزمان بالتقوى والصلاح والغيرة على الدين والعمل لمصلحة المسلمين؟ ألا ليت شعري بماذا يعللون سكوتهم وقد وجب النطق واستنصر الحق؟ وبأي شيء يؤولون اهمالهم فريضة « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر » وهم اولى الناس باقامتها ؟ لاجواب على ذلك الا ان الهمم مصروفة الى غير تلك السبيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل

لم تفقد الامة الاسلامية استعدادها للعمل فقدا تاما اذ هي لا تخلو من استعداد لقبول دعوة الخير الى عدما والا لكانت شرا محضا . ولا يوجد في الكون محض شر ولا نزال على الفور فالذي نشكوه ونعاه السيد الامام هو ضعف الاستعداد لا فقده تماما، وانما ترفض الامة الضعيفة الاستعداد دعوة الحق ولا تلبيها في وقتها لقصر في النظر وقلة في الفهم ، وضعف في القلب . وليست معذورة في ترك العمل لضعف استعدادها وحرمانها من الزعيم أو الزعماء كما تقدم ، فان ذلك الضعف وذلك الحرمان منها وهي التي ولدتهما كما تلد الام ولدها

ألا ان الاستعداد لايوجد في الامة من نفسه ولا يوهب لها كما يوهب المتاع، ولكن الامة هي التي توجده بتمهيد الاسباب له كما ان وجود الزعماء تابع لحركة الحياة فيها، فهم أبناؤها وهي التي تلدهم. فالامة هي التي توجد استعدادها كما تلد زعماءها، وقد يكون الزعيم موجودا وهي لا تراه لعلة في باصرتها أو بصيرتها فاذا زالت العلة بتقوية الاستعداد للاصلاح والتوجه لطلبه وجدته بين يديها وأمام عينيها

فالامر كله راجع الى الامة وهي التي عليها أن تحضر الدواء وهي التي عليها أن تتعاطاه، فهي المريض ومنها الطبيب. وبعبارة ثانية ان الامة متى وجد فيها الاستعداد للحياة أوجدت طبيبها واستعدت لقبول دوائه، فهي المطالبة باعداد الطبيب أو الاطباء وهي المطالبة بتجهيز الدواء وباستعماله في مقاومة الداء. انها هي المطالبة وحدها باقامة فريضة « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر » فان عجزت فقد عجزت عن الحياة ولا دواء ولا شفاء.

لست أعني [illegible] بل مرادي أن أقول ان حياتها لاتكون الا [illegible] العلاج الوحيد لمرضها.

انه ماكان للسيد الامام وهو طبيب الامة الاوحد أن يباشر علاجها الا من هذا الطريق الطبيعي الامين، وان يستعمل سلاحا لقطع عرق الفساد من أصوله غير ذلك السلاح الماضي. فقد أحيا هذه الفريضة ونصرها بلسان المنار الذي أنشأه وبلسانه على منابر الخطابة وفي الجمعيات والحفلات وفي مجالسه العامة والخاصة وقد ربى المنار رجالا يحبون الاصلاح ولكنه على ارتفاع صوته وعظم قوته المستمدة من قوة الحق لا يزال عدد من رباهم قليلا واستعدادهم ناقصا. ولا يدل ذلك على تقصير المنار بل هو علامة على استفحال الداء في جسم الامة. ولما رأى الرجل زاده الله علما وهدى أن تيار الفساد يشتد اشتدادا، وأعوان الضلال وأولياء الشيطان يزدادون ازديادا، أدرك أن الامر يقضي بتربية فئة من المسلمين تربية علمية أخلاقية دينية عصرية ليجعل منهم سدا امام ذلك السيل الجارف الذي ينذر بأمر خطير وشر مستطير. انه أراد بتأسيسه [جمعية الدعوة والارشاد] أن يهب الامة كنزا ثمينا لانفاد له تأخذ منه على الدوام حاجتها من الرجال القادرين على اقامة

هذه الفريضة التي لاقوام لها بدونها .

انه كان حقيقا بالمسلمين وقد أصبحوا على حافة الهاوية ان يشتروا حياتهم باحياء هذا المشروع . ان الحياة أغلا من ان تقوّم بمال ، فهل كثر على المسلمين ان يشتروا حياتهم بفلس لو قُسّم على كل فرد منهم ما أصاب الفرد بارة واحدة ؟ انهم بخلوا بهذه الدريهمات ولذلك مات المشروع فماتت بموته آمال عظام . انه مات صدقا ولكن ذلك لا يزعجنا فسيخلقه الله خلقا جديدا وما ذلك عليه بعزيز . نعم مات المشروع بعد ان عاش أربع سنين عيشة مضطربة ولكنه سيعود باذن الله تعالى على أيدي أناس آخرين جديرين باحراز فخر القيام به . انه مات ولكنه في الحقيقة لم يمت فقد مات بشكله الذي انشئ عليه وعاد للحياة بعد تحوير في شكله الاول بقدر ما سمحت به الوسائل لصاحبه وسيبقى ما شاء الله تعالى حاكما على الامة بالضعف وللاستاذ بعلو الهمة والاخلاص . مات المشروع ليحيا المشروع . مات وحقيقة الامر انه حي لانه من الحق والحق لا يموت ابدا . يحسب ميتا في الظاهر ولكن صاحبه بفضل الله لم يمت وسيبقى بتوفيق الله تعالى برغم من حسد الحاسدين سيفا مسلولا فوق رقاب المفسدين . وحجة لله تعالى على المجرمين .

ليس غرضي الآن ان أعود فادعوكم الى نصرة المشروع وقد رفضتم الدعوة من قبل وما أفقتم النذر ، ولا أدعوكم الى اقامة فريضة « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر » فانظروا ماذا أنتم صانعون . اني أطالبكم باقامة هذه الفريضة التي لا مجال فيها للتأويل ، ولا للقال والقيل ، انه في اقامة هذه الفريضة علاجكم الوحيد فلا يصح ان تتوانوا في طلبه والا فقدتم حياتكم .

ان الحالة وان اشتدت وتعاظمت لا يجوز ان ييأس لاشتدادها المؤمنون ، فانه لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون .

نعم انكم قطعتم في سبيل الضلال شوطا بعيدا وسقطتم في مهواة الخيبة والخسران سقوطا شديدا ، وصرتم أحط أهل الشرق والغرب ، وضجت من أفعالكم الارض واستاءت السماء وغضب الرب ، ولكن العلاج لايزال ممكنا وطريق السلامة أمامه مفتوحا آمنا . ولا يعوزكم الا السرعة في العمل ، قبل ضياع الامل . فان نار الشهوات

والهوى التي أحرقت أجسامكم وأرواحكم تكاد تأكل ما بقي من رمق فيكم، فاحفظوا هذا الرمق وانجوا بأنفسكم والا هلكتم كما هلك من كان قبلكم وما أنتم بمعجزين .

يؤلمني انه اذا دعا المسلمين داع لا يعرفون من المقصود منهم بالكلام فكل ينتحل لنفسه الاعذار ويرى انه غير معني بقول ولا مكلف بعمل ؛ ذلك بأنه لا جامعة تجمعهم ولا سائل ولا مسؤول ؛ ولكن الله يعلم ورسوله وملائكته وأهل الحق يعلمون أن لا وظائف في الاسلام ولا رسوم ، فكل مسلم مخاطب بكلمة الحق مطالب بالعمل بكتاب الله وسنة رسوله ، والامة كلها متضامنة في مسؤولية الرضاء بالحالة الحاضرة ، وعلى ذلك فأنا أوجه خطابي الى الامة جميعها ، وأعني به كل فرد من أفرادها ، وأقصد بنوع خاص أهل العقل والفهم الذين لهم آذان يسمعون بها وقلوب يفقهون بها ، أني أدعو هذه الامة الى اقامة فريضة « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر » وأخاطب في شخصها المسلمين كافة صغيرهم وكبيرهم سواء منهم المعمم والمطربش ، الكبير والحقير والغني والفقير والعالم والجاهل ، صاحب الملك والمزارع ، النظامي والعامي ، البدوي والحضري ، العربي والعجمي ، ان الله يأمركم جميعا باقامة هذه الفريضة فان أجبتم فان الله يعدكم من لدنه مغفرة وأجرا عظيما وان يرفع عنكم هذا البلاء ، ويفيض عليكم رزقا ورحمة من السماء ، وان تولوا فحسبكم ما أنتم فيه جزاء في الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى

أدعوكم أيها المسلمون الى اقامة هذه الفريضة ولا أخيركم بين اجابة الدعوة ورفضها لانه ما كان لي أن أخيركم بين الصحة والاعتلال ، والهدى والضلال ، ولكم فيما عدا ذلك أن تعدوا وسائل العمل بحسب ما يروق لكم ، ولكن ذلك لا يمنعني أن أكرر النصح لكم بأن أقرب الطرق الى اقامتها على وجهها هو تنفيذ مشروع [الدعوة والارشاد] الذي دعوتكم الى تعضيده في رسائلي الماضية ، فان كنتم في ريب منه فأتوا بمشروع خير منه أو مثله للقيام بهذا الواجب الاكبر ، وتخليص الامة من هذا الكرب العظيم ان كنتم صادقين ، فان لم تفعلوا وان تفعلوا فاعلموا أن ما دعاكم اليه امامكم هو الحق المبين واني لم أكن في ترديد دعوته غير ناصح أمين .

(*) قرأ هذه الرسالة ومنشئ المنار قد ذهب الى اداء فريضة الحج فنوجه اليها أنظار المسلمين ونخص منهم صاحب (الانتقاد على المنار) ص ١٩٠ ج ٣ صالح رضا